




التعارض بين دلالات السياق القرآني

د. عبد السلام بن صالح الجار الله
قسم الدراسات القرآنية – كلية المعلمين
جامعة الملك سعود





التعارض بين دلالات السياق القرآني
د. عبد السلام بن صالح الجار الله
قسم الدراسات القرآنية – كلية المعلمين
جامعة الملك سعود

ملخص البحث:

نصب الله تعالى دلائل عديدة تكشف المراد من كلامه ، وتعين على فهم القرآن الكريم ، كالاستعانة بالقرآن والسنة واللغة العربية ، ونحوها من الدلائل والقرائن . وقد يقع عند بعض المفسرين فضلاً عن غيرهم تعارض في تلك الدلائل والقرائن ، فتحتاج إلى تأمل وإعادة نظر ، والتوفيق بين ما يوهم التعارض ، وكشف المشكل الواقع لدى بعض الناس بين آيتين ، أو بين حديثين ، أو بين آية وحديث ونحو ذلك ، وقد تكلم العلماء في ذلك كثيراً ، وصنفوا فيه مصنفات مفردة . ومن الدلائل التي يقع فيها التعارض: التعارض بين دلالة السياق القرآني وغيرها ، كالتعارض بين دلالة السياق القرآني والحديث النبوي ، أو بين السياق وأسباب النزول ، أو بين السياق والإجماع . وأحياناً يقع التعارض بين دلالات السياق الواحد ، فيفيد سياق في آية أحد المعاني ، بينما تحتمل الآية نفسها معنى آخر بدلالة كلمة أو جملة أو ضمير في السياق نفسه . وهذه الأخيرة هي محل البحث ، فوجود التعارض بين دلالة كلمة في السياق على معنى للآية ، ودلالة كلمة أخرى في السياق نفسه على معنى آخر ، يستدعي من المفسر والمجتهد دفع التعارض بين الدلالات ، وإزالة الالتباس بوجه من وجوه دفع التعارض . وقد هدف البحث إلى بيان الموقف الصحيح الذي ينبغي للمفسر اتباعه عند وجود التعارض بين دلالات السياق القرآني على المعاني .



المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن الله تعالى أنزل القرآن الكريم لهداية الناس إلى الصراط المستقيم ، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(١) ، ولا يمكن الوصول إلى هذه الهداية إلا بفهم القرآن فهماً سليماً ، وقد نصب الله تعالى دلائل عديدة تكشف المراد من كلامه ، وتعين على فهم القرآن الكريم ، كالاستعانة بالقرآن والسنة واللغة العربية ، ونحوها من الدلائل والقرائن.

وقد يقع عند بعض المفسرين فضلاً عن غيرهم تعارض في تلك الدلائل والقرائن ، فتحتاج إلى تأمل وإعادة نظر ، والتوفيق بين ما يوهم التعارض ، وكشف المشكل الواقع لدى بعض الناس بين آيتين ، أو بين حديثين ، أو بين آية وحديث ونحو ذلك ، وقد تكلم العلماء في ذلك كثيراً ، وصفوا فيه مصنفات مفردة.

ومن الدلائل التي يقع فيها التعارض: التعارض بين دلالة السياق القرآني وغيرها ، كالتعارض بين دلالة السياق القرآني والحديث النبوي ، أو بين السياق وأسباب النزول ، أو بين السياق والإجماع.

وأحياناً يقع التعارض بين دلالات السياق الواحد ، فيفيد سياق في آية أحد المعاني ، بينما تحتل الآية نفسها معنى آخر بدلالة كلمة أو جملة أو ضمير في السياق نفسه.

وهذه الأخيرة هي محل البحث ، فوجود التعارض بين دلالة كلمة في السياق على معنى للآية ، ودلالة كلمة أخرى في السياق نفسه على معنى آخر ، يستدعي من المفسر والمجتهد دفع التعارض بين الدلالات ، وإزالة الالتباس بوجه من وجوه دفع التعارض.

أسئلة البحث:

- ما موقف المفسر حين تتعارض دلالات السياق القرآني على المعاني؟
- وهل تتفاوت سياقات الآية في دلالتها على المعاني؟

(١) سورة الإسراء آية (٩).

– وأي المعاني أحق بالترجيح من الآخر؟

– وأي سياقات الآية أولى بالتقديم؟

هدف البحث

يهدف البحث إلى بيان الموقف الصحيح الذي ينبغي للمفسر اتباعه عند وجود التعارض بين دلالات السياق القرآني على المعاني. ولم أجد فيما اطلعت عليه بحثاً مستقلاً في هذه المسألة سوى إشارات من بعض الباحثين^(١).

خطة البحث:

يشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة وفهارس:

أما التمهيد ففي تعريف دلالة السياق القرآني.

المبحث الأول: طرق دفع التعارض بين الأدلة.

المبحث الثاني: تعارض السياق القرآني مع غيره.

المبحث الثالث: طرق دفع التعارض بين دلالات السياق القرآني، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: طريقة الجمع.

المطلب الثاني: طريقة الترجيح.

منهج البحث:

ما ذكرته من تعارض السياق القرآني مع غيره، وطرق دفع التعارض بين دلالات السياق القرآني مبني على استقرائي للتعارض المتعلق بالسياق القرآني، وما وقفت عليه في هذا الشأن، وقد عُنيت بذكر الأمثلة في المسائل التي هي من أصل البحث معتبياً بتحليلها وتحرير الأقوال في معاني الآية، وعزوها إلى مصادرها المعتبرة، ومناقشتها والترجيح بينها، مع الالتزام بالمنهج العلمي المتبع في كتابة البحوث من عزو الآيات وتخريج الأحاديث ونحو ذلك.

والله أسأل أن يوفقني وقارئ هذا البحث للعلم النافع، إنه نعم المولى ونعم النصير.

(١) انظر: دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير د. عبد الحكيم القاسم (ص ٩٨)، والخطأ في تفسير القرآن بالقرآن، د. محسن المطيري (ص ٢١٧).

التمهيد:

تعريف دلالة السياق القرآني

١ - الدلالة بفتح الدال - على الأفصح - مصدر دل يدل دلالة ، وهي : ما يلزم من فهم شيء فهم شيء آخر ، فالشيء الأول : هو الدال ، والشيء الثاني : هو المدلول ، والدلالة إما أن تكون لفظية أو غير لفظية ، وكل منهما ثلاثة أنواع : عقلية وطبيعية ووضعية ، وأشهرها الدلالة اللفظية الوضعية ، وهي التي يُتحدث عنها في كتب الأصول والمنطق^(١) .

٢ - وأما السياق فيرجع في معناه اللغوي إلى التابع والاتصال ، وعلى هذا المعنى شواهد عربية :

مثل قولهم : " انسأقت وتسأوقت الإبل تسأوقاً ، إذا تابعت ، وكذلك تفاودت ، فهي متفاودة ومتسأوقة " ^(٢) .

وقول العرب : وولدت ثلاثة بنين على ساق : متتابعة لا جارية بينهم ^(٣) .

وسياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه ^(٤) .

وقرينة السياق هي ما يؤخذ من لاحق الكلام الدال على خصوص المقصود أو سابقه ^(٥) .

ودلالة السياق القرآني : فهم الآية بمراعاة ما قبلها ، وما بعدها ^(٦) .

(١) وهي ثلاثة أقسام : دلالة المطابقة ، وهي دلالة اللفظ على تمام المعنى الموضوع له اللفظ ، ودلالة التضمن ، وهي دلالة اللفظ على جزء مسماه ، ودلالة الالتزام ، وهي دلالة اللفظ على لازم مسماه ، ومن شواهدنا في القرآن الكريم ما ذكره ابن كثير : في تفسيره (٤١/٧) عند قول الله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ رَجُلًا مَلَكُوتًا ﴾ [الصافات : ١٨٠ - ١٨٢] قال : " لما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع ، وفي مواضع كثيرة من القرآن ، ولهذا قال : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ رَجُلًا مَلَكُوتًا ﴾ . وانظر في تعريف الدلالة وأقسامها : المستقصى للغزالي (٣٠/١) ، والإحكام للأصمدي (١٥/١) ، والتعريفات للجرجاني (ص ١٣٩ - ١٤٠) ، وشرح الكوكب المنير لابن النجار (١٢٥/١) ، وآداب البحث والمناظرة للشنقيطي (١١/١) ، وضوابط المعرفة للميداني (ص ٢٦) .

(٢) لسان العرب (٢١٥٤/٣) .

(٣) أساس البلاغة (ص ٣١٤) ، والقاموس المحيط (ص ١١٥٦) .

(٤) المعجم الوسيط (ص ٤٦٥) .

(٥) حاشية العطار (٣٠/١) .

(٦) انظر دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير د. القاسم (ص ٩٣) .

فدلالة السياق القرآني فهم الآية من خلال السياق ، فالسياق هو الدال ، والمعنى المفهوم هو المدلول.

ومن هذا التعريف يتبين أن دلالة السياق على المعنى تشمل ما قبل الآية المراد تفسيرها وما بعدها ، وكلاهما داخل في السياق ، ويسمى ما قبل الآية سباقاً ، وما بعدها لحاقاً^(١).

٣ - وأما التعارض في اللغة فهو على وزن تفاعل بمعنى التقابل ، يقال: "عارض الشيء بالشيء معارضة قابله ، وعارضت كتابي بكتابه ، أي: قابلته"^(٢).

ويأتي بمعنى المنع . وفي القاموس المحيط^(٣): "الاعتراض: المنع ، والأصل فيه أن الطريق إذا عترض فيه بناء أو غيره منع السابلة من سلوكه".

قال الزركشي -رحمه الله-: (ت ٧٩٤) في تعريف التعارض: "تفاعل من العُرض بضم العين ، وهو الناحية والجهة ، وكأن الكلام المتعارض يقف بعضه في عُرْض بعض ، أي: ناحيته وجهته ، فيمنعه من النفوذ إلى حيث وُجّه"^(٤).

والتعريف الاصطلاحي للتعارض مأخوذ من هذين المعنيين ، فهناك تقابل بين أمرين يؤدي إلى منع كل منهما مقتضى الآخر.

ولذا يعرف التعارض عند بعض الأصوليين بأنه تقابل الدليلين بحيث لا يمكن الجمع بينهما^(٥).

والتعريف الأعم أن يقال: التقابل بين شيئين على وجه يمنع كل منهما مقتضى صاحبه^(٦).

فهذا التعريف أشمل من التعريف الذي قبله ، ليشمل التعارض بين الأدلة التي هي من مباحث الفقهاء والأصوليين ، كما يشمل التعارض بين المعاني والأقوال ونحوها.

(١) انظر: الكليات للكفوي (ص ٥٠٨) . وقواعد الترجيح عند المفسرين (١٢٥/١).

(٢) لسان العرب (٤/٢٨٨٥).

(٣) (ص ٨٣٣).

(٤) البحر المحيط (١٠٩/٦).

(٥) انظر في تعريفه: المستصفى (٢/٣٩٥) ، وروضة الناظر (٣/١٠٢٩) ، والبحر المحيط للزركشي (١٠٩/٦) .

وارشاد الفحول (ص ٢٧٣).

(٦) الإبهاج للسبكي (٢/٢٩٩).

المبحث الأول:

طرق دفع التعارض بين الأدلة

من القضايا المسلمة عند العلماء كافة أنه لا يمكن وقوع تعارض حقيقي بين النصوص الشرعية، قال أبو بكر الخلال -رحمه الله-: (ت ٣١١): "لا يجوز أن يوجد في الشرع خبران متعارضان ليس مع أحدهما ترجيح يقدم به، فأحد المتعارضين باطل؛ إما لكذب الناقل أو خطئه بوجه ما من النقليات، أو خطأ الناظر في النظريات، أو لبطلان حكمه بالنسخ"^(١).

و"كل من تحقق بأصول الشريعة، فأدلتها عنده لا تكاد تتعارض، كما أن كل من حقق مناط المسائل، فلا يكاد يقف في متشابه، لأن الشريعة لا تعارض فيها البتة، فالمتحقق بها متحقق بما في نفس الأمر؛ فيلزم أن لا يكون عنده تعارض، ولذلك لا تجد البتة دليلين أجمع المسلمون على تعارضهما بحيث وجب عليهم الوقوف، لكن لما كان أفراد المجتهدين غير معصومين من الخطأ، أمكن التعارض بين الأدلة عندهم"^(٢).

فالتعارض بين الأدلة الشرعية في نفس الأمر مستحيل، وأما وجود التعارض من جهة نظر المجتهد إذا لم يتمكن من الجمع فممكّن من غير خلاف^(٣).

وأول طرق دفع التعارض وأولها عند العلماء الجمع بين النصوص الشرعية المتعارضة، فمضى أمكن الجمع تعين المصير إليه، ولم يجر المصير إلى الترجيح، لأن الجمع ينتفي به التعارض^(٤).

وقد اعتنى المفسرون قديماً وحديثاً بمسلك الجمع بين آيات الكتاب العزيز، وتختلف طريقتهم عن طريقة الفقهاء والأصوليين الذين اعتنوا بالآيات المتعلقة بالأحكام، أما المفسرون فقد اعتنوا بهذا الضرب من الآيات، واعتنوا بالآيات المتعلقة بالأخبار وغيرها، ولهم في دفع التعارض بين نصوص الكتاب العزيز مقاصد، كإظهار

(١) شرح الكوكب المنير لابن النجار (٦١٧/٤).

(٢) الموافقات (٣٤١/٥-٣٤٢).

(٣) المصدر السابق، وانظر: إرشاد الفحول (ص ٢٧٥).

(٤) إرشاد الفحول (ص ٢٧٦).

الإعجاز والبلاغة القرآنية ، واستنباط اللطائف التفسيرية والبلاغية ، والرد على من يحاول الطعن بالقرآن بإظهار تعارض آياته وتناقضها.

ومن أمثلته عن السلف ما جاء عن نافع بن الأزرق (ت ٦٥) أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما ، فقال: " يا ابن عباس قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ^(١) ، وقوله: ﴿وَاللَّهُرِيتَانَا مَا كَانَا مُشْرِكِينَ﴾ ^(٢) . فقال له ابن عباس: إني أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت: ألقى على ابن عباس متشابه القرآن ، فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله جامع الناس يوم القيامة في بقيع واحد ، فيقول المشركون: إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وحده ، فيقولون: تعالوا نقل ، فيسألهم فيقولون: ﴿وَاللَّهُرِيتَانَا مَا كَانَا مُشْرِكِينَ﴾ ، قال: فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم ، فتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين ، فعند ذلك تمنوا لو أن الأرض سويت بهم ، ولا يكتُمون الله حديثاً ^(٣) .

فقد أوهم ابن الأزرق التعارض بين الآيتين ، حيث نفت الأولى أن يكتُم الكفار الله حديثاً يوم القيامة ، وفي الثانية كتموا إشراكهم بالله تعالى بقولهم: ﴿وَاللَّهُرِيتَانَا مَا كَانَا مُشْرِكِينَ﴾ . فبين له ابن عباس أنه بعد نفيهم إشراكهم بالله تشهد عليهم جوارحهم بأنهم كانوا مشركين ، وعندها يتمنون أنهم لم يكتُموا الله حديثاً ، فهذا التمني وقع بعد نفيهم إشراكهم بالله تعالى.

ولأهمية الجمع بين الآيات التي توهم التعارض أفرد لها العلماء كتباً عدة ^(٤) . ومسلك الجمع بين المتعارضات مسلك عام يدخل في وجوه كثيرة من التعارض . وبه يندفع التعارض بين آيات الكتاب العزيز ، والتعارض بين الأحاديث ، والتعارض بين آية

(١) سورة النساء آية (٤٢).

(٢) سورة الأنعام من الآية (٢٣).

(٣) جامع البيان (٤٣/٧ - ٤٤) . وأخرجه الحاكم في المستدرک (٣٠٦/٢ - ٣٠٧) مختصراً.

(٤) منها على سبيل المثال:

البرهان في توجيه متشابه القرآن لتاج القراء محمود بن حمزة الكرمانی.

ودرة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد الأصبهانی (الخطيب الإسكافي) .

وملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ، لابن الزبير الغرناطي.

ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، لمحمد الأمين الشنقيطي.

وحديث ، كما أنه مسلك مهم عند تعارض الأقوال . وبخاصة أقوال العلماء في تفسير القرآن الكريم ، ولذا تتأكد أهمية التفصيل عند ذكر خلافات العلماء والترجيح بينها . ومن أوجه دفع التعارض بين النصوص الشرعية القول بنسخ النص المتأخر للنص المتقدم على ضوابط وشروط مذكورة في مظاهرها^(١).

ومن الأوجه: الترجيح بين الأدلة ، وللعلماء في الترجيح مسالك متعددة ، وقد يكون بعضها خاصاً ، كالترجيح بين خبرين متعارضين ؛ لم يمكن الجمع بينهما ، وذلك بتقديم المتواتر على غيره ، ثم الآحاد وأعلاه " الصحيح ، فيقدم على غيره ، ثم الحسن ، فيقدم على غيره ، ثم الضعيف ، وهو أصناف كثيرة ، وتتفاوت مراتب كل من الصحيح والحسن ، والضعيف ، فيقدم من كل من ذلك ما كان أقوى " . على ما هو مفصل في كتب أصول الفقه^(٢).

ويتفرع عن ذلك الترجيح بين الرواة ، كترجيح أحد الحديثين بكثرة رواته ، أو أن أحد الراويين أزيد ثقة ، وفطنة ، وورعاً ، وعلماً ، وضبطاً ونحو ذلك ، وهذه المرجحات متعلقة بالسند.

ومن مسالك الترجيح عند العلماء الترجيحات المتعلقة بالمتون ، كالترجيح بين دلالات النصوص الشرعية ، وهذا أقرب المسالك إلى بحثنا ، ووجوه الترجيح بين الدلالات كثيرة ، نذكر طرفاً منها على سبيل الإجمال ، فمن ذلك: تقديم دلالة النص على دلالة الظاهر ، ودلالة الإيماء^(٣).

(١) انظر: المستصفى (٢٩٣/٢) ، وشرح الكوكب المنير (٦٠٧/٤).

(٢) انظر على سبيل المثال: شرح الكوكب المنير لابن النجار (٦٠٤/٤) ، وما بين القوسين منه . وإرشاد الفحول (ص ٢٧٦).

(٣) انظر: البحر المحيط للزركشي (٢٢٩/٦) ، والنص هو ما يفيد بنفسه من غير احتمال كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ هُمْ يَصِفُونَ أَلْسِنَةً حَمِيقَةً﴾ [البقرة: ١٩٦] ، وقيل: هو الصريح في معناه ، والظاهر هو ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع تجويز غيره ، أو هو ما احتمل معنيين هو في أحدهما أظهر ، وحكمه أن يصار إلى معناه الظاهر ، ولا يجوز تركه إلا بتأويل ، ودلالة الإيماء لا تكون إلا على علة الحكم خاصة ، بأن يذكر وصف مقترن بحكم في نص من نصوص الشرع على وجه لو لم يكن ذلك الوصف علة لذلك الحكم لكان الكلام معيباً . انظر: المستصفى (٢٨٤/١) ، وروضة الناظر (٥٦٠/٢-٥٦٤) ، ومذكورة في أصول الفقه للشنقيطي (ص ٢٣٦).

وتقديم ما دل بمفهوم الموافقة على ما دل بمفهوم المخالفة^(١).
وتقديم دلالة الاقتضاء على دلالة الإشارة ، لأنها أولى لترجحها بقصد المتكلم لها
بخلاف دلالة الإشارة^(٢).

وتقديم دلالة المطابقة على دلالة الالتزام لأنها أضبط^(٣).
وإذا كان هناك دليلان دل أحدهما على مطلوبه من وجهين أو أكثر ، والآخر لا يدل إلا
من جهة واحدة ، فالذي كثرت جهة دلالاته أولى ، لأنه أغلب على الظن^(٤).
وثمة أمور ينبغي للمرجح مراعاتها عند الترجيح بين الأدلة ، ومنها:
١- أن الترجيح فعل المرجح الناظر في الدليل.
٢- أن المرجحات كثيرة ، وقد ذكرنا جملة منها.
٣- أن بعضها أقوى من بعض ، واتضح مما تقدم أن الدلالات متفاوتة في قوتها .
فبعضها أقوى من بعض ، ولا بد للمرجح من مراعاة ذلك.

٤- أن الترجيح غلبة الظن عند المجتهد ، فيقدم ما كان أقوى في الدلالة عنده.
قال ابن النجار - رحمه الله -: (ت ٩٧٢): " الترجيح: فعل المرجح الناظر في الدليل ،
وهو تقديم إحدى الأمارتين الصالحتين للإفضاء إلى معرفة الحكم ، لاختصاص تلك
الأمرة بقوة في الدلالة ، كما لو تعارض الكتاب والإجماع في حكم ، فكل منهما طريق
يصلح لأن يعرف به الحكم ، لكن الإجماع اختص بقوة على الكتاب من حيث الدلالة " ^(٥).

(١) انظر: الإحكام للآمدي (٢٥٣/٤) ، وشرح الكوكب المنير (٦٧١/٤) ، وإرشاد الفحول (ص ٢٧٩) ،
ومذكرة في أصول الفقه (ص ٣٢٦).

(٢) الإحكام للآمدي (٢٥٣/٤) ، وإرشاد الفحول (ص ٢٧٩) ، ودلالة الاقتضاء لا تكون إلا على محذوف دل
المقام عليه ، وتقديره لا بد منه ، لأن الكلام دونه لا يستقيم لتوقف الصدق أو الصحة عليه ، وأما دلالة
الإشارة فهي دلالة اللفظ على معنى ليس مقصوداً باللفظ في الأصل ، ولكنه لازم للمقصود ، فكأنه
مقصود بالتبع لا بالأصل ، كدلالة قوله: ﴿إِن لَّكُمْ لِيَلَّةٌ أَلْيَسَارُ الرَّفْتِ إِلَى نَسَائِكُمْ﴾ [سورة البقرة
١٨٧] على صحة صوم من أصبح جنباً ، انظر: الإحكام للآمدي (٦٥-٦٤/٣) ، ومذكرة في أصول الفقه
للشنقيطي (ص ٢٣٥).

(٣) الإحكام للآمدي (٢٥٣/٤).

(٤) الإحكام للآمدي (٢٥٢/٤) ، وإرشاد الفحول (ص ٢٧٨).

(٥) شرح الكوكب المنير (٦١٨/٤).

وإنما اعتبر ابن النجار الإجماع أقوى في الدلالة على الحكم من الكتاب ؛ لأنه غير قابل للتأويل ، ولعدم تطرق احتمال النسخ إليه ، لأنه إنما ينعقد بعد انقطاع الوحي ، فهو أقوى عنده من هذه الحثيثة^(١).

والمراد هنا بيان تفاوت الدلالات في قوتها ، وكلامه يتعلق بالترجيح بين الأدلة في الأحكام ، لكن يمكن تطبيقه على دلالات السياق المختلفة ، فنظر المجتهد إلى دلالات السياق قد يفضي به إلى ترجيح إحدى الدلالات على غيرها لقرائن ومرجحات تقوده إلى ذلك.

وقال الزركشي - رحمه الله - : " أعلم أن التراجيح كثيرة ، ومناطها ما كان إفادته للظن أكثر ، فهو الأرجح ، وقد تتعارض هذه المرجحات ، كما في كثرة الرواة وقوة العدالة وغيره ، فيعتمد المجتهد في ذلك ما غلب على ظنه " ^(٢).

وقال الشنقيطي - رحمه الله - : (ت ١٣٩٣) : " والمرجحات يرجح بعضها على بعض ، وضابط ذلك عند الأصوليين هو قوة الظن " ^(٣).

وهذه الأمور ينبغي أن تكون حاضرة عند من ينظر في أقوال المفسرين ، واستدلالهم على المعاني التي يذكرونها ليستفيد منها في الترجيح بين الأدلة والأقوال ، فيرجح ما تسانده الأدلة وتقويه.

إن المتأمل في ترجيحات المفسرين بين الأقوال بدلالة السياق وغيرها يدرك الحقيقة التي تقدمت وهي تفاوت اجتهاداتهم ، فيرى بعضهم أن السياق أولى بالتقديم ، ويرى آخرون أن غيره أولى.

ومن أمثلته : أن ابن جرير رحمه الله - : (ت ٣١٠) ذكر الأقوال في تفسير قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٤) ، وأن منهم من قال : إنه موسى بن عمران -

(١) انظر : المستصفى (١٠٢ / ٢) ، والإحكام للآمدي (٣٢٧ / ٢) ، وإرشاد الفحول (ص ٧٨ ، ١٦٠) .

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه (١٥٩ / ٦) ، وانظر : شرح الكوكب المنير (٦٢٥ / ٤) ، وإرشاد الفحول (ص ٢٨٤) .

(٣) أضواء البيان (٤٠٢ / ٥) ، وانظر قواعد الترجيح عند المفسرين (٥٧ / ١) .

(٤) سورة الأحقاف آية (١٠) .

عليه السلام - ، ومنهم من قال: هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه ثم يرجح فيقول: "والصواب من القول في ذلك عندنا أن الذي قاله مسروق (ت ٦٢) [وهو القول الأول] في تأويل ذلك أشبه بظاهر التنزيل ، لأن قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ في سياق توبيخ الله - تعالى ذكره - مشركي قريش ، واحتجاجاً عليهم لنبيه ﷺ ، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها ، ولم يجز لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذكر ، فتوجه هذه الآية إلى أنها فيهم نزلت ، ولا دل على انصراف الكلام عن قصص الذين تقدم الخبر عنهم معنى ، غير أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله ج بأن ذلك عني به عبد الله بن سلام ، وعليه أكثر أهل التأويل ، وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن ، والسبب الذي فيه نزل ، وما أريد به ، فتأويل الكلام إذ كان ذلك كذلك: وشهد عبد الله بن سلام ، وهو الشاهد من بني إسرائيل على مثله ، يعني على مثل القرآن ، وهو التوراة ، وذلك شهادته أن محمداً مكتوب في التوراة أنه نبي ، تجده اليهود مكتوباً عندهم في التوراة ، كما هو مكتوب في القرآن أنه نبي ^(١) .

فقرينة السياق التي نص عليها ابن جرير - رحمه الله - : لم تقو على معارضة ما روي عن جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - ، وما عليه أكثر أهل التأويل ، من أن الشاهد عبد الله بن سلام ، ولذا عدل عنها إلى القول الثاني ، بينما يرى غيره أن القول بأنه عبد الله بن سلام ضعيف ، لأن السورة مكية وعبد الله إنما أسلم بالمدينة ، وكأن هذه القرينة التاريخية تضعف هذا القول ، يقول ابن تيمية - رحمه الله - : (ت ٧٢٨): "وقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ ، ليس المقصود شاهداً واحداً معيناً ، بل ولا يحتمل كونه واحداً ، وقول من قال: إنه عبد الله بن سلام ليس بشيء ، فإن هذه الآية نزلت بمكة ، قبل أن يعرف ابن سلام ، ولكن المقصود جنس الشاهد ، كما تقول: قام الدليل ^(٢) .

وهذا هو الأظهر ، فإن الشاهد في الآية مبهماً منكراً ، والمحمل الصحيح لما ورد عن الصحابة ﷺ في أن الشاهد عبد الله بن سلام أن مرادهم أن الآية نزلت فيه ، وقد نص على ذلك سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - فإنه قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي

(١) جامع البيان (١٣١/٢١).

(٢) النبوات (١٧٧/١).

على الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية (١).

وهذه العبارة ترد عن السلف كثيراً، ويريدون بها أنه داخل في حكمها ودلائلها، قال ابن تيمية: "وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا؛ يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب، كما تقول: عنى بهذه الآية كذا" (٢).

وقريب من هذه القرينة التاريخية ما ذكره الشنقيطي -رحمه الله-: عند تفسير قول الله تعالى: ﴿إِن يَمَسَّكُمْ فَرَجٌ مِّنَ الْقَوْمِ فَاصْرَحْ لَهُمْ وَأُولَٰئِكَ الْآيَاتُ لِنُذَارِهِمْ﴾ فإنه قال: "قال بعض العلماء: وقرينة السياق تدل على أن القرع الذي أصاب المشركين ما وقع بهم يوم أحد؛ لأن الكلام في وقعة أحد، ولكن التثنية في قوله: ﴿مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٣) تدل على أن القرع الذي أصاب المشركين ما وقع بهم يوم بدر؛ لأنه لم ينقل أحد أن الكفار يوم أحد أصيبوا بمثلي ما أصيب به المسلمون، ولا حجة في قوله: ﴿تَحْسُونَهُمْ﴾ (٤)؛ لأن ذلك الحس والاستئصال في خصوص الذي قتلوا من المشركين، وهم أقل ممن قتل من المسلمين يوم أحد، كما هو معلوم" (٥).

فقرينة السياق لم تقو عنده على معارضة القرينة التاريخية، لأنه لم ينقل تاريخياً أن الكفار أصيبوا يوم أحد بمثلي ما أصيب به المسلمون، والآية نصت على إصابة الكفار بمثل ما أصيب به المسلمون يوم أحد في قوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مَّصِيبَةً﴾، يعني يوم أحد ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا﴾، ويعني به يوم بدر، وهو القرع الذي أصاب الكفار في يوم بدر، يقول الشنقيطي: "وقد أشار إلى القرحين معاً بقوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مَّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا﴾، فالمراد بمصيبة المسلمين القرع الذي مسهم يوم أحد، والمراد بمصيبة الكفار

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب مناقب عبد الله بن سلام (٤/٢٢٩).

(٢) مقدمة في التفسير ضمن مجموع الفتاوى (١٣/٣٣٩).

(٣) سورة آل عمران من الآية (١٦٥).

(٤) سورة آل عمران (١٥٢).

(٥) أضواء البيان (١/٣٤٠).

بمثليها قبل القرع الذي مسهم يوم بدر؛ لأن المسلمين يوم أحد قتل منهم سبعون، والكفار يوم بدر قتل منهم سبعون، وأسروا سبعون^(١).

وقد تكون القرينة التاريخية غير صريحة في الدلالة، فلا تقوى على معارضة قرينة السياق، ومن أمثلته: ما ذكره الحسن البصري: (ت ١١٠) عند قول الله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، حيث قال: كان الرجلان اللذان في القرآن، اللذان قال الله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾، من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القربان في بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات^(٣).

فاستدل الحسن على أن ابني آدم من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه، بأن القربان كان في بني إسرائيل، وأن آدم أول من مات، فهو قبل قتل ابن آدم، وهذه قرينة ضعيفة، وفي سياق الآيات ما يردّها، فإن الله تعالى قال: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ سَوَاءَ أَخِيهِ﴾^(٤)، وهذا يدل على أن الحادثة حدثت قبل أن يعلم الناس دفن الموتى، ولا يخفى على أحد أنه ليس في بني إسرائيل رجل يجهل الدفن حتى يدلّه عليه الغراب، فقصة الاقتداء بالغراب في الدفن، ومعرفته منه تدل على أن الواقعة وقعت في أول الأمر قبل أن يتمرن الناس على دفن الموتى، كما هو واضح^(٥).

وأما قول الحسن بأن القرايين كانت في بني إسرائيل، فلا يلزم منه أن لا تكون معروفة قبل ذلك^(٦)، وقول الحسن: إن آدم أول من مات يحتاج إلى دليل. ومن هذا يتضح أن القرائن تتفاوت، بل القرينة الواحدة تتفاوت قوة وضعفاً، كما رأيت في هذه القرينة، وعلى المفسر الاجتهاد في الأخذ بأقواها وأرجحها.

(١) أضواء البيان (١/٣٢٨).

(٢) سورة المائدة آية (٢٧).

(٣) جامع البيان (٨/٣٢٤).

(٤) سورة المائدة من الآية (٣١).

(٥) أضواء البيان (٢/٧١٧).

(٦) قواعد الترجيح عند المفسرين (١/٣٠٩).

المبحث الثاني:

تعارض السياق القرآني مع غيره

إن قوة السياق القرآني تتجلى بوضوح من أمرين: دلالة الصريحة على المعنى، والثاني ضعف الأدلة الأخرى عن دفعه، فالكلمة القرآنية من حيث مدلولها اللغوي قد تأتي لأكثر من معنى، واختيار المعنى المناسب للآية يحدده ويحكم به سياق الآيات، ويجب على المفسر أن ينطلق في تفسير الكلمة من ذلك، ومن القواعد التي يجب أن يراعيها في ذلك: أنه ليس كل ما صح لغة صح تفسيراً^(١).

يقول الزركشي -رحمه الله-: "ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي"^(٢).

ويمتدحُ الراغب الأصفهاني في كتابه مفردات القرآن، فيقول عمال لم يرد فيه نقل: "وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات، فيذكر قيذاً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ، لأنه اقتنصه من السياق"^(٣).

والناظر في أقوال المفسرين واختلافاتهم يجد كل فريق ينتصر لقوله ويؤيده بالأدلة، فقد يستدل فريق على صحة تفسيرهم بالسياق، ويقابلهم آخرون بأدلة من القرآن الكريم، أو السنة، أو أسباب النزول ونحوها^(٤)، وحينئذٍ ينبغي للمفسر والمجتهد الناظر في تلك الأقوال وأدلتها المقارنة بينها وأياها أقوى وأرجح، ومن ثم تقديمه والترجيح به.

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين (٢/٣٦٢).

(٢) البرهان (١/٤٢٧).

(٣) البرهان (٢/٣١٣)، وانظر (١/٣٩٤) من الكتاب نفسه، ويقول الراغب في المفردات (ص ٤٠٢) في مادة سخر: "والسخرية والسخرية: لفعل الساخر، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُ سَخِرًا﴾ [المؤمنون: ١١٠]، ﴿سَخِرًا﴾. فقد حمل على الوجهين: على التسخير، وعلى السخرية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِيَالًا كَمَا نَفَعُ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٣]، ويدل على الوجه الثاني قوله بعد: ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَبْخَحُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠]."

(٤) انظر في ذلك: السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني د. زيد العيص (ص ٨٦٠)، والسياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي لعبد الفتاح محمود (ص ١٤٠).

وسأكتفي من هذه الحالات بمثال على التعارض بين السياق والحديث في الدلالة

على المعنى:

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُقُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ②﴾.

اختلف العلماء في الزلزلة والأهوال المذكورة هل تقع قبل قيام الناس من قبورهم ووقوفهم في عرصات القيامة، أو تقع بعد قيام الناس من قبورهم؟.

فذهب جمع من العلماء إلى أن الزلزلة والأهوال تقع قبل يوم القيامة، وهذا قول علقمة (ت ٦٢)، والشعبي (ت ١٠٥)، وإبراهيم النخعي (ت ٩٦) وغيرهم، ومال إليه ابن عطية (ت ٥٤١) (٣).

واستدل هؤلاء بسياق الآيات، فإن من أهوال الزلزلة المذكورة في السورة أن تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وهذا إنما يكون في الدنيا، أما بعد قيام الناس من قبورهم فلا حمل ولا إرضاع (٣).

وقال آخرون: إن الزلزلة والأهوال المذكورة تقع في العرصات بعد قيام الناس من قبورهم، وهو قول الحسن والسدي (ت ١٢٧)، ورجحه الطبري، والشنقيطي (٤).

واحتمل هؤلاء بما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: "يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟، قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ

(١) سورة الحج الآيتان (١-٢).

(٢) انظر: جامع البيان (٤٤٦/١٦)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٨٤/٥).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (٢١٢/٦)، ومعالم التنزيل (٣٦٤/٥).

(٤) انظر: جامع البيان (٤٤٩/١٦)، ومعالم التنزيل (٣٦٤/٥)، وأضواء البيان (١٢٠٩/٥).

اللَّهُ شَدِيدٌ ﴿١﴾، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: "من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد" (١).

قال الشنقيطي - رحمه الله -: معلقاً على الحديث: "وفيه تصريح النبي ج بأن الوقت الذي تضع فيه الحمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى: هو يوم القيامة لا آخر الدنيا" (٢).

ومما احتجوا به حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: لما نزلت: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، قال: أنزلت عليه هذه، وهو في سفر، فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟، فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟، قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة" (٣).

والقول الأول الذي استدل بالسياق له وجه، لذا لم يخف ابن جرير: إعجابه به وذكر أنه قول لولا مجيء الصحاح من الأخبار عن رسول الله ﷺ بخلافه (٤).

وكذلك ذكر الشنقيطي - رحمه الله -: أن هذا القول من حيث المعنى له وجه من النظر، ولكن لم يثبت ما يؤيده من النقل، بل الثابت من النقل يؤيد خلافه، وهو القول الآخر (٥).

والراجع - والله أعلم - القول بوقوع ما ذكره الله بعد قيام الساعة وبعث الناس من قبورهم، ويمكن أن يجاب عن القول الآخر بما يأتي:

١- عدم صراحة دلالة سياق الآيات على أن الزلزلة والأهوال تقع قبل قيام الناس من قبورهم، قال الرازي - رحمه الله -: (ت ٦٠٦): "واعلم أنه ليس في اللفظ دلالة على شيء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب سورة الحج (٢٤١/٥)، ومسلم في كتاب الإيمان (٢٠١/١) برقم (٣٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري - رحمه الله -.

(٢) أضواء البيان (١٣/٥).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه في أبواب التفسير، باب ومن سورة الحج (٣١٣/٨)، والإمام أحمد في المسند (٤٣٥/٤)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد ساق ابن جرير في جامع البيان (٤٤٩/١٦)، وابن كثير في تفسيره (٥٣٨٥) أحاديث أخرى في هذا المعنى.

(٤) جامع البيان (٤٤٩/١٦).

(٥) أضواء البيان (٩/٥).

من هذه الأقسام^(١)، لأن هذه الإضافة تصح وإن كانت الزلزلة قبلها، وتكون من أماراتها وأشراتها، وتصح إذا كانت فيها ومعها، كقولنا آيات الساعة وأمارات الساعة^(٢).
 ٢- يمكن أن يقابل القول بأن الحمل والإرضاع لا يكون إلا في الدنيا، بأن من ماتت حاملاً تبعث حاملاً، فتضع حملها من شدة الهول والفرع، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك، وكلا الأمرين يحتاج إلى دليل^(٣).

٣- أن الإخبار بهذه الأحوال كناية عن شدة الهول، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾^(٤)، وهذا كالإخبار بالزلزلة، فإن معناه "شدة الخوف والهول والفرع؛ لأن ذلك يسمى زلزالاً، بدليل قوله تعالى فيما وقع بالمسلمين يوم الأحزاب من الخوف: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾^(٥) هَٰذَا الَّذِي آتَى الْمُؤْمِنِينَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾^(٦)، وهو زلزال فرع وخوف، لا زلزال حركة الأرض^(٦).

إن هذه الاحتمالات والأجوبة تقلل من قوة دلالة السياق ورجحانه، وإذا قارناها بصحة الحديث وقوة دلالته في أن الأحوال المذكورة تقع في يوم القيامة بعد البعث لم يبق إلا القول بتقديمه وترجيحه على دلالة السياق، والله أعلم.

* * *

(١) وهي أن الأحوال تكون في الدنيا، أو تكون مع قيام الساعة، أو تكون في أول يوم من أيام الآخرة.

(٢) التفسير الكبير (٨ / ٢٠٠).

(٣) أضواء البيان (٥ / ١٥).

(٤) سورة المزمل آية (١٧).

(٥) سورة الأحزاب الآيتان (١٠-١١).

(٦) أضواء البيان (٥ / ١٥).

المبحث الثالث:

طرق دفع التعارض بين دلالات السياق القرآني

قد تحتل الآية وجوهاً من المعاني ، ولا يكون في سياق الآية الدلالة على أحدها أو ترجيحه على غيره ، بمعنى أن سياق الآيات خال من الدلالة على أحد المعاني بخصوصه أو منعه ورده ، وحينئذ لا مانع من حمل الآية على جميع المعاني المحتملة.

ومن الأمثلة على ذلك: قول الله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَاسَنِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(١).

فالواو في قوله: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يحتتمل أن تكون واو قسم ، فيكون قسم من السحرة بالله الذي فطرهم أنهم لن يؤثروا فرعون على ما جاءهم من البينات ، ويحتتمل أن تكون واو عطف ، والمعنى لن يؤثروه على الذي جاءهم من البينات ، ولن يؤثروه على الذي فطرهم^(٢).

ومن أمثله قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾^(٣)، فإن فيها معنيين كلاهما حق:

الأول: وهو الإله ، أي: المعبود بحق في السموات والأرض ، وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾^(٤).

والثاني: أن يكون قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾. والمعنى: وهو يعلم سرركم وجهركم في السموات والأرض ، ويدل له قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥).

وقد يختلف المفسرون في الآية ، ويحتج كل فريق بقريضة من سياق الآية على صحة المعنى الذي ذهب إليه ، وللمفسر حينئذ مع هذا الاختلاف عدة طرق ، وهي لا تخرج عن الطرق التي يذكرها العلماء في دفع التعارض ، ومنها:

(١) سورة طه آية (٧٢).

(٢) جامع البيان (١١٦/١٦).

(٣) سورة الأنعام آية (٣).

(٤) سورة الزخرف من الآية (٨٤).

(٥) سورة الفرقان من الآية (٦)، وانظر أضواء البيان (١/٢٩-٣٠).

المطلب الأول: طريقة الجمع

والمراد بها الجمع بين مدلولات السياق القرآني ، فإذا كانت الآية تحتل المعاني كلها وتصدق عليها جميعاً ، فلا مانع من الحمل عليها ، وبذلك ينتفي التعارض . وهذه الطريقة أول الطرق التي ينبغي سلوكها ، وهي أولاها وأقواها في دفع التعارض ، وأكثرها دوراً عند المفسرين ، وينبغي أن يكون نظر المفسر أول الأمر إلى التوفيق بين الأقوال ، والجمع بينها وتوجيهها ، وبيان احتمال الآية لها ما أمكن ذلك . والخلاف بين المفسرين حينئذٍ من اختلاف التنوع لا التضاد ، وأكثر الخلاف بين السلف يرجع إليه . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: " الخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد " (١) . ولهذا النوع من الاختلاف صور عديدة (٢) ، وأمثله في اختلافات المفسرين أكثر من أن تحصر ، ومن أمثله في قضية البحث:

١- ما جاء عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهري (ت ١٨١) قال: سألت زيد بن أسلم (ت ١٣٦) عن قول الله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ الآية إلى قوله: ﴿سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (٣) ، فقلت له: من يراد بهذا ؟ ، فقال: رسول الله ﷺ ، فقلت له: رسول الله ؟ ، فقال: ما تنكر ؟ ، قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ﴾ (٤) ، قال: ثم سألت صالح بن كيسان (ت ١٤٠) عنها ، فقال لي: هل سألت عنها أحداً ؟ ، فقلت: نعم ، قد سألت عنها زيد بن أسلم ، فقال: ما قال لك ؟ ، فقلت: بل تخبرني ما تقول ، فقال: لأخبرنك برأيي الذي عليه رأيي ، فأخبرني ما قال لك ؟ ، قلت: قال: يراد بهذا رسول الله ﷺ ، فقال: وما علم زيداً ، والله ما سن عالية ، ولا لسان فصيح ، ولا معرفة بكلام العرب ، إنما يراد بهذا الكافر ، ثم قال: اقرأ ما بعدها يدلك على ذلك . قال: ثم سألت حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس (ت ١٤١) ، فقال لي: مثل ما قال لي صالح: هل سألت أحداً ؟ فأخبرني به ،

(١) مقدمة في التفسير (١٣/٣٢٢) .

(٢) انظرها في المرجع السابق .

(٣) سورة ق الآيات (١٩-٢١) .

(٤) سورة الضحى الآيتان (٦ ، ٧) .

قلت: إني قد سألت زيد بن أسلم، وصالح بن كيسان، فقال لي: ما قال لك؟ قلت: بل تخبرني بقولك. قال: لأخبرنك بقولي، فأخبرته بالذي قال لي، قال: أخالفهما جميعاً، يريد بها البر والفاجر، قال الله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَيِّدًا ۝١٩ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾^(١) قال: فانكشف الغطاء عن البر والفاجر، فرأى كل ما يصير إليه^(٢).

من النص السابق يتبين أن للسلف في المخاطب بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ ثلاثة أقوال:

الأول: أن المخاطب به النبي ﷺ، وهذا قول زيد بن أسلم.

والقول الثاني: أن المخاطب به الكافر، وهو قول صالح بن كيسان، وقال بقوله: ابن عباس، ومجاهد (ت ١٠٣)، والضحاك (ت ١٠٦)^(٣).

القول الثالث: أن المراد به المؤمن والكافر، وهو قول حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، واختاره ابن جرير^(٤).

وقد استدل ابن كيسان وحسين بن عبد الله لقولهما بسياق الآيات، فابن كيسان فسر الآيات بأنه يراد بها الكافر، واستدل بالحقاق، وقال لسائله: اقرأ ما بعدها يدلك على ذلك، والذي بعد قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، هو قوله: ﴿وَقَالَ فَرِحْتُ بِهَذَا مَا لَدَىٰ عَذَابٍ ۝٢٣ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كِغَارٍ عَنِيبٍ ۝٢٤ مَنَاجِلَ لِلْعَذَابِ مُعْتَدٍ ۝٢٥ أَلَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝٢٦﴾^(٥)، وهي قطعاً تتحدث عن الإنسان الكافر.

والمخاطب بالآية عند حسين بن عبد الله هو المؤمن والكافر، وقد استدل بالسباق، وهو قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَيِّدًا ۝١٩ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، وألفاظها عامة.

(١) سورة ق الآيات (١٩-٢٣).

(٢) جامع البيان (١١/٤١٩-٤٢٠).

(٣) انظر: جامع البيان (٢١/٤٣٤)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/٣٧٩).

(٤) جامع البيان (٢١/٤٣٣).

(٥) سورة ق الآيات (٢٣-٢٦).

والراجع أن الآية عامة ، والمراد بها الإنسان من حيث هو ، فتشمل المؤمن والكافر ، والسباق واللاحق يدل لذلك :

أما السياق فقد جاء بلفظ العموم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ آدَمُ بِمِيقَاتِهِ ﴾ (١) يراد عموم الإنسان ، قال ابن جرير مرجحاً هذا القول : " والإنسان في هذا الموضع بمعنى : الناس كلهم ، غير مخصوص منهم بعض دون بعض " (٢) ، ومن العموم في السباق قول الله تعالى : ﴿ وَحَاطَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ (٣) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴿ وَحَاطَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ (٣) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴿ جاءت قيل لصاحبها : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ .

وأما اللاحق فقد تكلمت الآيات عن المؤمن والكافر ، فبدأت بالكافر في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴾ (٤) أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيٍّ ﴾ (٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿ وثنت بالمؤمن في قوله : ﴿ وَأَزَلَّاهُمُ الْغَنَىٰ الْمُتَنَفِّينَ عِبَادِ عَزِيزٍ ﴾ (٦) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿ (٣) .

وأما قول زيد بن أسلم : إن المراد بالآية محمد ﷺ ، وعلى هذا يكون الخطاب في الدنيا ، ومعنى الآية : لقد كنت يا محمد في غفلة من معرفة هذا القصص والغيب ، حتى أرسلناك وأنعمنا عليك وعلمناك (٤) ، وهذا القول ضعيف ، قال ابن جزي - رحمه الله - : (ت ٧٤١) : " وهذا في غاية الضعف لأنه خروج عن سياق الكلام " (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴾ (٦) أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿ يقتضي عود الضمير - وهو الهاء في قرينه - إلى أقرب مذكور ، وهو الذي يقال له : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ، وظاهر من السياق أن

(١) سورة ق من الآية (١٦) .

(٢) جامع البيان (٤٣٢/٢١) ، وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٧٩/٧) .

(٣) سورة ق الآيات (٣١-٣٤) ، ورجح هذا القول : ابن عطية في المحرر الوجيز (٤٤/٨) ، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٣٧٩/٧) .

(٤) المحرر الوجيز (٤٤/٨) .

(٥) التسهيل (٣١٥/٢) .

كلام القرين في الآية إنما يتجه إلى الكافر، وإن عاد الضمير على قوله: ﴿وَمَكَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ جاء هذا الاعتراض لمحمد ﷺ بين الكلامين غير متمكن^(١).

٢ - قول الله تعالى: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨)﴾.^(٢)
اختلف المفسرون في معنى ﴿عَسَسَ﴾ على قولين:

القول الأول: أن معناها أدبر، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة (ت ١١٨) والضحاك، وزيد بن أسلم، وحكى بعضهم إجماع المفسرين عليه^(٣).
القول الثاني: أن معنى ﴿عَسَسَ﴾ أقبل، وهو مروي عن ابن جبير (ت ٩٥)، ومجاهد والحسن، وعطية العوفي (ت ١١١)^(٤).

وقد استدل أصحاب كل قول على صحة تفسيرهم بسياق الآيات، وهو قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

قال الطبري مرجحاً معنى الإدبار: "وأولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: إذا أدبر، وذلك لقوله: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فدلّ بذلك على أن القسم بالليل مدبراً، وبالنهار مقبلاً"^(٥).

وبعبارة أوضح يقول ابن عطية: "ويرجع هذا قوله بعد: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فكأنهما حالان متصلتان، ويشهد له قول علقمة بن قرط:

حتى إذا الصبح لها تنفّسا ... وانجاب عنها ليلها وعسعسا"^(٦).

وممن ذكر دلالة السياق هذه: ابن الجوزي (ت ٥٩٦)، والرازي، وابن جزي، والشوكاني (ت ١٢٥٠)^(٧).

(١) المحرر الوجيز (٤٤/٨).

(٢) سورة التكويد الآيتان (١٧-١٨).

(٣) انظر: تهذيب اللغة (٧٨/١)، والجامع لأحكام القرآن (٧٠٢٩/٨).

(٤) انظر في القولين: جامع البيان (١٥٩/٢٤-١٦١)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٦٠/٨).

(٥) جامع البيان (١٦١/٢٤).

(٦) المحرر الوجيز (٥٥٠/٨).

(٧) انظر: زاد المسير (٤٢/٩)، والتسهيل (٥٤٢/٢)، وفتح القدير (٣٩٠/٥).

وأما دلالة السياق على معنى أقبل ، فقد قال ابن كثير بعد أن ذكر ترجيح الطبري لمعنى الإدبار : " وعندي أن المراد بقوله: ﴿عَسَسَ﴾ إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله في الإدبار ، لكن الإقبال هاهنا أنسب ، كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضائه إذا أشرق ، كما قال: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾ (١) ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ (٢) .
وممن أشار إلى دلالة السياق هذه: أبو حيان (ت ٧٤٥) ، والسمين الحلبي (ت ٧٥٦) ، والشوكاني (٣) .

وقد أجمل الألوسي احتجاج كل فريق بالسياق بعبارة موجزة ، فقال: " وقيل: كونه بمعنى أقبل ظلّامه أوفق بقوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ . فإنه أول النهار ، فيناسب أول الليل ، وقيل: كونه بمعنى أدبر أنسب بهذا ، لما بين إدبار الليل وتنفس الصبح من الملاصقة ، فيكون بينهما مناسبة الجوار " (٤) .

وكلمة عسس في اللغة تأتي على كلا المعنيين: أقبل ، وأدبر ، فهي من الأضداد (٥) ، وبناء على ذلك اختلف المفسرون فيها ، لكن اختلافهم ليس من اختلاف التضاد الذي يلزم من القول بأحد المعنيين عدم القول بالآخر ، وسياق الآيات يحتمل كلا المعنيين ، وليس أحدهما أقوى من الآخر ، وحمل الآية عليهما جميعاً غير ممتنع ، فالإدبار يقع في وقت ، والإقبال يقع في وقت ، فيكون الله جل وعلا أقسم بالليل حال إقباله ، وأقسم به حال إدباره ، وكلاهما من آيات الله الكونية ، واختيار القرآن الكريم لفظ عسس دون غير من بلاغة الإيجاز ، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣): " إثارة هذا الفعل لإفادته كلا حالين صالحين للقسم به فيهما ، لأنهما من مظاهر القدرة إذ يعقب الظلام الضياء ، ثم يعقب الضياء الظلام ، وهذا إيجاز " (٦) .

وقال المبرد (ت ٢٨٦): أقسم تعالى بإقباله وإدباره معاً (٧) .

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٦٠) .

(٢) انظر: البحر المحيط (٨/٤٢٥) ، والدر المصون (١٠/٧٠٦) .

(٣) روح المعاني (٣٠/٥٨) .

(٤) انظر: تهذيب اللغة (١/٧٨) ، ولسان العرب (٤/٢٩٤١) .

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/١٥٤) .

(٦) المحرر الوجيز (٨/٥٥٠) .

وابن كثير مع أنه رجح معنى الإقبال إلا أنه أشار إلى صحة مذهب الجمع بين القولين ، فقال: "وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة ﴿عَسَسَ﴾ تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك ، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما ، والله أعلم"^(١).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٦٠/٨). وفي تهذيب اللغة (٧٩/١) "عَسَسَ الليل إذا أقبل وعَسَسَ إذا أدبر ، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد ، هو ابتداء الظلام في أوله ، وإدباره في آخره " ، وانظر لسان العرب (٢٩٤١/٤).

المطلب الثاني: طريقة الترجيح

والمراد هنا ترجيح دلالة أحد السياقين على دلالة السياق الآخر، فيقدم المعنى الذي دلالة السياق عليه أقوى، ويكون هو الأولى بمعنى الآية.

وليعلم أن ترجيح قول على آخر، أو القول بأنه أقوى لا يعني أبداً إبطال القول الآخر وإسقاطه، فقد يكون له حظ من النظر، وقد تحتمله الآية، لكن غيره أقوى منه، وقد نبه المفسرون على ذلك، فقد ذكر الماوردي -رحمه الله-: (ت ٤٥٠) من أضرب الترجيح بين أقوال التفسير أن يكون هناك دليل "على صحة أحد المعنيين فيثبت حكمه، ويكون مراداً، ولا يقتضي سقوط المعنى الآخر، ويجوز أن يكون مراداً، وإن لم يكن عليه دليل، لأن موجب لفظه دليل، فاستويا في حكم اللفظ، وإن ترجح أحدهما بدليل، فصار مرادين معاً، وذهب بعض أهل العلم إلى أن المعنى الذي يرجح بدليل أثبت حكماً من المعنى الذي تجرد عنه، ولقوته بالدليل الذي ترجح به، فهذا أصل يعتبر من وجوه التفسير، ليكون ما احتمله أفاظ القرآن من اختلاف المعاني محمولاً عليه، فيعلم ما يؤخذ به ويعدل عنه" (١).

وكثيراً ما يقول الطبري -رحمه الله-: في الترجيح بين أقوال التفسير: وأولى الأقوال عندي في تفسير الآية كذا وكذا، ولا يسقط القول الآخر.

يقول -رحمه الله-: "وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي روي عن رسول الله ﷺ، وإن كان الذي قاله قتادة في ذلك غير بعيد من الحق، وبه قال جماعة من أهل التأويل" (٢).

وأحياناً يؤكد الطبري أن القول الآخر قريب من المعنى الذي ذكره، فعند قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ رَكَبْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣)، ذكر أن المراد بالبينات: الحجج والأدلة على صحة دين الإسلام، ثم قال: "وقد قال عدد من أهل التأويل: إن البينات هي محمد ﷺ والقرآن، وذلك قريب من الذي قلنا في تأويل ذلك،

(١) النكت والعيون (٤٠/١).

(٢) جامع البيان (٢٠/٢٢٠)، وانظر من نفس الكتاب (٢/٢١٧، ٩/٢٣، ١٠/٦٧، ١٦/١٨٧، ١٧/٤٦٦).

(٣) سورة البقرة آية (٢٠٩).

لأن محمداً ﷺ والقرآن من حجج الله على الذين خوطبوا بهذه الآية ، غير أن الذي قلناه في تأويل ذلك أولى بالحق^(١).

وسار على هذا المنهج ابن كثير : (ت ٧٧٤) ، إذ يقول عند قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾^(٢): "يحتمل أن يكون ﴿يَوْمًا﴾ معمولاً لتتقون ، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود: فكيف تخافون أيها الناس يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به ؟ ، ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم ، فعلى الأول: كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفرع العظيم إن كفرتم ؟ ، وعلى الثاني: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ؟ ، وكلاهما معنى حسن ، ولكن الأول أولى ، والله أعلم^(٣)."

وننبه هنا إلى أن الأقوال المرجوحة وإن كانت محتملة المعنى ، فإنه ينبغي تفسير القرآن الكريم بالأرجح من الأقوال ، وحمل الآية على أصح المعاني والوجوه^(٤). وللترجيح بين دلالات السياق وجوه عديدة ، منها:

الوجه الأول: أن يكون أحد السياقين أقرب من السياق الآخر ، فيقدم عليه ، ويظهر هذا الوجه بجلاء في عود الضمائر ، ومن القواعد المقررة عند العلماء أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور مالم يرد دليل بخلافه ، قال ابن تيمية -رحمه الله-: "والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك"^(٥).

وقال أبو حيان -رحمه الله-: مرجحاً أحد الأقوال في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَقَى آلَ مَالٍ عَلَىٰ حَبِيبٍ﴾^(٦): "ومن قواعد النحويين أن الضمير لا يعود إلى غير الأقرب إلا بدليل"^(٧).

(١) جامع البيان (٦٠٣/٣) ، وانظر: (٢٧١/٢ ، ٢٧٤/٣).

(٢) سورة المزمل آية (١٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٨٣/٨) ، وانظر في هذه القضية قواعد الترجيح عند المفسرين (٥٢/١) وما بعدها.

(٤) انظر قواعد الترجيح عند المفسرين (٥٣/١).

(٥) مجموع الفتاوى (١١٢/١٥).

(٦) سورة البقرة من الآية (١٧٧).

(٧) البحر المحيط (٦/٢).

وقال الشنقيطي - رحمه الله -: "الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه"^(١).

ومن أمثلة هذا الوجه:

قول الله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾^(٢).

اختلف القراء في قوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾. فقرأ بعضهم بكسر الميم وخفض التاء، وقرأ آخرون بفتح الميم ونصب التاء ﴿مَنْ تَحْتِهَا﴾^(٣).

وقد اختلف المفسرون على كلا القراءتين، هل المنادي جبريل أو عيسى^(٤)؟

ف قيل: إن المنادي عيسى - عليه السلام -، وهذا القول مروى عن أبيّ، ومجاهد، والحسن، ووهب بن منبه، وابن زيد (ت ١٨٢)، وسعيد بن جبيرة في إحدى الروايتين عنه^(٥)، وأشار إلى قرينة السياق، فقال في قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾^(٦)، قال: "عيسى ناداها، أما تسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾"^(٧).

ورجح هذا القول ابن جرير، ومكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧)، وأبو حيان، والشنقيطي^(٨).

والقول الثاني: أن المنادي جبريل - عليه السلام -، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وعمرو بن ميمون (ت ٧٤)، والسدي، وقتادة، واستظهره القرطبي^(٩). ومن دلالة السياق على هذا القول أن الحوار في الآيات دار بين مريم وجبريل، وهذا من تتمته، وقد أشار إلى دلالة السياق هذه ابن جرير ومكي كما سيأتي قريباً.

(١) أعضاء البيان (٤/٣١٠)، وانظر قواعد الترجيح عند المفسرين (٢١١/٢).

(٢) سورة مريم آية (٢٤).

(٣) انظر: التيسير للداني (ص ١٤٨)، والنشر لابن الجزري (٣١٨/٢).

(٤) التسهيل لابن جزي (٦/٢).

(٥) انظر: جامع البيان (٥٠٤/١٥)، وأعضاء البيان (٣٠٩/٤).

(٦) سورة مريم من الآية (٢٤).

(٧) سورة مريم من الآية (٢٩)، والأثر في جامع البيان (٥٠٤/١٥).

(٨) انظر: جامع البيان (٥٠٤/١٥)، والهداية (٤٥٢٣/٧)، والبحر المحيط (١٧٣/٦)، وأعضاء البيان (٣١٠/٤).

(٩) انظر: جامع البيان (٥٠١/١٥)، والجامع لأحكام القرآن (٤١٣٣/٥)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢١٨/٥).

والراجع أن المنادي عيسى - عليه السلام - لما يأتي:

أ - أن عيسى - عليه السلام - أقرب ذكراً في الآيات من جبريل - عليه السلام - ، وقد أشار إلى هذا الوجه غير واحد من المفسرين ، فقال ابن جرير الطبري - رحمه الله - : " وأولى القولين في ذلك عندنا قول من قال: الذي ناداها ابنها عيسى ، وذلك أنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل ، فردّه على الذي هو أقرب إليه أولى من رده على الذي هو أبعد منه" (١).

وقال مكّي بن أبي طالب - رحمه الله - : " والاختيار عند أهل النظر في الكسر أن يكون لعيسى مثل الفتح ، أي: فناداها عيسى من تحتها ، وقرئ بذلك لتقدم ذكر عيسى ، ولم يتقدم ذكر جبريل إلا فيما بعد ، عند قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ (٢) ، فالحمل على الأقرب أولى من الأبعد" (٣).

وقال الرازي - رحمه الله - : " ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليه السلام . إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ ﴾ ، والضمير هاهنا عائد إلى المسيح ، فكان حمله عليه أولى" (٤).

ب - القاعدة المقررة أن توحيد مرجع الضمائر في السياق الواحد أولى من تفريقها (٥) ، قال الزركشي - رحمه الله - : " إذا اجتمع ضمائر فحيث أمكن عودها لواحد فهو أولى من عودها لمختلف" (٦).

وقال السيوطي - رحمه الله - : (ت ٩١١) : " الأصل توافق الضمائر في المرجع حذراً من التشتب" (٧).

(١) جامع البيان (٥٠٥/١٥).

(٢) سورة مريم من الآية (١٧).

(٣) الهداية (٤٥٢٣/٧).

(٤) التفسير الكبير (٥٢٧/٧) ، وانظر أضواء البيان (٣١٠/٤).

(٥) قواعد الترجيح عند المفسرين (٦١٣/٢).

(٦) البرهان (٣٣/٤).

(٧) الإيقان (٢٤٥/١).

وإذا تأملت الضمائر في الآيات وجدت ما قبل الآية وما بعدها يعود إلى عيسى - عليه السلام - . فالحاء من قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ وقوله: ﴿فَأَنْبَذَتْ بِهِ﴾ وقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ وقوله: ﴿تَحْمِلُهُ﴾ وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ تعود قطعاً إلى عيسى - عليه السلام - ، فينبغي أن يكون ما بينها ، وهو: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ لعيسى أيضاً.

وقد أشار إلى ذلك الطبري - رحمه الله - : . فقال: " ألا ترى في سياق قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ فَأَنْبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيئًا ^(١) يعني به: فحملت عيسى ﴿فَأَنْبَذَتْ بِهِ﴾ ، ثم قيل: ﴿فَنَادَاهَا﴾ نسقاً على ذلك من ذكر عيسى والخير عنه " ^(٢) .

وقال الشنقيطي - رحمه الله - : " لأن الله قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ ، يعني عيسى ، ﴿فَأَنْبَذَتْ بِهِ﴾ ، أي بعيسى ، ثم قال بعده: ﴿فَنَادَاهَا﴾ ، فالذي يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسى " ^(٣) .

ج - ذكر الشنقيطي أن مريم " لما جاءت به قومها تحمله ، وقالوا لها ما قالوا ، أشارت إلى عيسى ليكلموه ، كما قال تعالى عنها: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأُفْهِمَ صَبِيًّا﴾ ^(٤) ، وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم ، على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته ، وبهذه القرينة الأخيرة استدل سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه على أنه عيسى ، كما نقله عنه غير واحد " ^(٥) .

الوجه الثاني من وجوه الترجيح: أن تكون دلالة أحد السياقين أظهر في الدلالة من السياق الآخر ، بحيث تكون دلالة أحد السياقين على معناه خفية.

ويؤكد الزركشي: أن اللفظ إذا احتمل معنيين أحدهما أظهر من الآخر ، فيجب الحمل على الظاهر ، إلا أن يقوم دليل على أن المراد هو الخفي دون الجلي ، فيحمل عليه ^(٦) .

(١) سورة مريم آية (٢٢).

(٢) جامع البيان (٥٠٥/١٥).

(٣) أضواء البيان (٣١٠/٤).

(٤) سورة مريم آية (٢٩).

(٥) أضواء البيان (٣١٠/٤) ، وانظر: جامع البيان (٥٠٥/١٥) ، والتفسير الكبير (٥٢٧/٧).

(٦) البرهان (٣٠٨/٢).

ومن أمثلة هذا الوجه:

قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسَّيْلَ بَنَرُهُ﴾^(١).

اختلف في المراد بالسبيل على قولين: أحدهما: أن المراد السبيل خروج الإنسان من بطن أمه، وقال بهذا القول: ابن عباس، وعكرمة (ت ١٠٤)، والضحاك، وقتادة، والسدي، واختاره ابن جرير^(٢).

والقول الآخر أن المراد به طريق الخير والشر، وقال به: مجاهد، والحسن، وابن زيد، ورجحه ابن كثير^(٣).

وفي سياق الآيات الدلالة على كلا المعنيين:

أما دلالته على القول الأول فهو أن الآيات قبل هذه الآية تكلمت عن خلق الإنسان ونشأته • ﴿فَبَدَّلَ الْإِنْسَانَ مَا اكْتَرَمَ﴾^(٤) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ^(٥) مِنْ نَفْسٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ^(٦) • ثم تكلمت بعد هذه الآية عن موته وقبره وبعثه، فالكلام متصل في بيان الأطوار التي يمر بها الإنسان في حياته.

وأما دلالة السياق على القول الثاني فهو أن الله تعالى أخبر أن الإنسان لم يقض ما أمره به، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَنَأْيُضُنَّ مَا آمَرَهُ﴾^(٧)، فالله قد يسر السبيل للإنسان وبينه ووضحه له، ومع ذلك قد يفعل الإنسان ما لا يرضي ربه، ولا يقوم بالحق الواجب^(٨).

وإذا تأملت السياقين وجدت أن السياق ظاهر الدلالة على المعنى الأول، فقد دل عليه السباق واللاحق، يقول ابن جرير - رحمه الله -: "أولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: ثم الطريق، وهو الخروج من بطن أمه يسره، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب، لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أن الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفة خلقه

(١) سورة عبس آية (٢٠).

(٢) انظر: جامع البيان (١١٢/٢٤)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٤٥/٨).

(٣) انظر المصدرين السابقين.

(٤) سورة عبس الآيات (١٦-١٩).

(٥) سورة عبس آية (٢٣).

(٦) انظر: نظم الدرر (٢٦٢/٢١)، والتحريز والتنوير (١٢٣/٢٠)، وتنمة عطية سالم على أضواء البيان (٥٥/٩).

وتدبيره جسمه . وتصريفه إياه في الأحوال . فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده^(١).

ويقول ابن عاشور - رحمه الله - : " وفيه مناسبة لقوله بعده: ﴿ثُمَّ أَنَا فَاقْبَرُ﴾^(٢) . ف ﴿ثُمَّ أَنَا﴾ و (أَقْبَرُهُ) مقابل ﴿خَلَقْتُ﴾ ، لأن الإقبار إدخال في الأرض ، وهو ضد خروج المولود إلى الأرض^(٣).

أما دلالة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّيْلَ بَسَّرُ﴾ على معنى طريق الخير والشر ففيها نوع خفاء ، بل إنها تدل على المعنى الآخر ، فالإنسان مع هذه النعم من خلقه ، وتيسير خروجه إلى الدنيا لم يقابل هذه النعم بالشكر . ولم يقض ما أمره الله تعالى به . ولما كانت دلالة السياق على معنى طريق الخير والشر بهذا الخفاء لجأ بعض المفسرين إلى دليل آخر خارج السياق ، فعن مجاهد قال: سبيل الشقاء والسعادة ، وهو كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّيْلَ﴾^(٤).
 وذهب بعض المفسرين إلى تصويب كلا القولين^(٥) ، والله تعالى أعلم.

(١) جامع البيان (١١٣/٢٤) ، ورجحه أيضاً بدلالة هذا السياق ابن جزى في التسهيل (٥٣٨/٢).

(٢) سورة عبس (٢١).

(٣) التحرير والتنوير (١٢٣/٣٠).

(٤) سورة الإنسان من الآية (٣) ، وانظر: جامع البيان (١١٢/٢٤).

(٥) انظر: نظم الدرر (٢٦١/٢١) ، والتحرير والتنوير (١٢٣/٣٠) ، ونظير هذه الآية قول الله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَا السَّيْلَ﴾ [سورة البلد: ١٠] ، فإن للمفسرين في معنى النجدين قولين دل السياق على كل منهما: القول الأول: وعليه أكثر المفسرين أن المراد بالنجدين طريق الخير والشر ، فإن أصل معنى النجد: الأرض المرتفعة ارتفاعاً دون الجبل . وقد أشار ابن عاشور إلى دلالة السياق على هذا المعنى ، فقال: " واستعير النجدان للخير والشر ، وجعلنا نجدين لصعوبة اتباع أحدهما وهو الخير ، فغلب على الطريقين ، أولاً أن كل واحد صعب باعتبار ، فطريق الخير صعوبته في سلوكه ، وطريق الشر صعوبته في عواقبه ، ولذلك عبر عنه بعد هذا بالعقبة " [التحرير والتنوير (٣٥٥/٣٠)] . والقول الثاني: أن المراد بالنجدين الثديان ، والمعنى أن الله هدى الإنسان للرضاع من ثدي أمه ، وهذا القول مروى عن ابن عباس وقتادة ، ومن دلالة السياق على هذا المعنى أن الآية جاءت في سياق تعداد النعم على الإنسان الذي حصل منه جحود للنعمة وكفر بها ، فالمنة عليه بالرضاع من لبن أمه مناسبة للمنة عليه بالعينين واللسان والشففتين في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ نَجْمًا زَاجِرًا﴾ [سورة البلد: ٨-٩] ، وانظر تفسير جزء عم د. الطيار (ص ١٥٠).

الوجه الثالث: أن تتوارد دلالات أحد السياقين على تأييد أحد المعاني، فيستدل المفسر على المعنى الذي يرجحه بمواطن عديدة من سياقات الآية. فتكون أكثر من دلالة السياق الآخر على معناه، وهذه الدلالات السياقية تعطي المعنى قوة، وتزيد من غلبة الظن برجحانه.

وفي شرح الكوكب المنير^(١): "كثرة الأدلة تفيد تقوية الظن، لأن الظنَّين أقوى من الظن الواحد، لكون الأكثر أدلة أقرب إلى القطع، فيرجح بذلك".

ومن أمثلة هذا الوجه^(٢):

١- قول الله تعالى عن إبراهيم -عليه السلام-: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ الآيات^(٣).

فقد اختلف المفسرون هل كان إبراهيم -عليه السلام- في حالته هذه مناظراً لقومه محتجاً عليهم ببطلان آلهتهم، أو كان ناظراً؟.

فروي عن ابن عباس وغيره أن المقام مقام نظر، وأنه وقع له في بداية أمره ووقت طفولته، وأنه كان في غار، فجَنَّ عليه الليل فقال ما ذكر الله عنه، وفي بعض الروايات التصريح بأنه عبد الكواكب، ثم توصل بهذا النظر والتفكير إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، ورجح هذا القول ابن جرير:، واستدل بقول إبراهيم -عليه السلام- حين أفل القمر: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾^(٤).

وذهب فريق من المفسرين إلى أن المقام مقام محاجة لقومه ومناظرة لا اعتقاداً^(٥). ورجحه ابن عطية، وابن كثير، وابن جزي، والقاسمي (ت ١٣٣٢)، والشنقيطي وغيرهم^(٦).

(١) (٦٣٤/٤).

(٢) المثال السابق في قصة مريم يصلح أن يكون مثلاً هنا، فقد اجتمعت ثلاث قرائن من السياق ترجح أحد المعنيين كما سبق في مبررات الترجيح.

(٣) سورة الأنعام الآيات (٧٦-٨٣).

(٤) سورة الأنعام من الآية (٧٧)، وانظر: جامع البيان (٣٦١/٩)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٨٥/٣).

(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٧٣٢/٢)، والجامع لأحكام القرآن (٢٤٦١/٣).

(٦) انظر: المحرر الوجيز (٤٠٢/٣)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٨٥/٣)، والتسهيل (٢٧٦/١)، ومحاسن التأويل (٢٣٧٦/٦)، وأضواء البيان (٢٣٦/٢).

ويدل لهذا الرأي عدة دلالات من السياق ، ومنها:

أ - أن إبراهيم - عليه السلام - قد عرف ربه قبل هذه الواقعة ، فقد ذكر الله تعالى أنه قال لأبيه قبل قصته مع الكواكب: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰ أَنَّكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(١) ، وهذا يدل على أنه من الموقنين قبل ذلك^(٢).

ب - قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُرْقِينِ ﴾^(٣) ، ثم قال بعد ذلك: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ، فعقب بالفاء ، وهي تقتضي الترتيب ، فثبت أن هذه القصة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم - عليه السلام - من الموقنين العارفين بربه^(٤).

ج - قوله تعالى: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾^(٥) ، وقوله: ﴿ وَذَٰلِكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾^(٦) ، وهاتان الآيتان تدلان على أن هناك محاجة وقعت بين إبراهيم وقومه^(٧).

د - أن الله تعالى قال: ﴿ وَذَٰلِكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ، ولم يقل على نفسه ، فعمل أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه ، لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد ، لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه^(٨).

هـ - أن قول الله تعالى في آخر القصة: ﴿ قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا فَشَرَكُونَ ﴾^(٩) يضعف أن يكون المقام مقام نظر ، قال ابن عطية: " وهي ألفاظ تقتضي محاجة ورداً على قوم ، وحاله في الغار بعيدة عن مثل هذا^(١٠) ، وبخاصة إذا علمنا أن قوله: ﴿ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا فَشَرَكُونَ ﴾ ، جاء مباشرة بعد العطف بالفاء في قوله: ﴿ فَلَمَّا أَفْلَتْ قَالَ يَنْقُورُ ﴾ .

(١) سورة الأنعام آية (٧٤).

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي (٣٩/٥).

(٣) سورة الأنعام آية (١٧٥).

(٤) التفسير الكبير (٣٩/٣) ، وأضواء البيان (٢٣٧/٢).

(٥) سورة الأنعام من الآية (٨٠).

(٦) سورة الأنعام آية (٨٣).

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٨٦/٣) ، وأضواء البيان (٢٣٧/٢).

(٨) التفسير الكبير (٤٠/٣).

(٩) سورة الأنعام من الآية (٧٨).

(١٠) المحرر الوجيز (٤٠٢/٣).

و- أن الآيات دلت على أن القصة وقعت له أثناء دعوة قومه ، قال الله تعالى:
﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْكُمُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا
وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ
أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴿٨١﴾﴾^(١) فهذه الآيات تدل على أن قومه
خوفوه بالأصنام ، وعلم بذلك أنه كان يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة ، وهذا يدل
على أنه كان من الموقنين^(٢).

وإذا قارنت بين دلائل السياق لكلا القولين تبين لك أنها أقوى في الدلالة على القول
الثاني . وهو أن إبراهيم كان مناظراً لقومه محاجاً لهم .

وهناك قرائن أخرى تدل على ضعف القول بأن إبراهيم - عليه السلام - كان ناظراً .
فإن الله تعالى نفى أن يكون إبراهيم مشركاً في الزمن الماضي في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ
إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣﴾﴾^(٣) ونفي الكون الماضي
يستغرق جميع الزمن الماضي ، فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما^(٤).

ولما ذكر ابن الجوزي القول الآخر واحتجاجهم بقوله تعالى: ﴿لَنْ يَهْدِيَ رَبِّي
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٤﴾﴾^(٥) وأنه يدل على نوع تحير ، وأنه قال هذا في حال طفولته على
ما سبق إلى وهمه ، قبل أن يثبت عنده دليل ، عقب بقوله: " وهذا القول لا يرتضى ،
والمتهملون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال "^(٦).

وأجاب عن الآية التي احتجوا بها بأن الأنبياء عليهم السلام ما زالوا يسألون الله
الهدى ، وينتزعون إليه في دفع الضلال عنهم ، كقوله تعالى: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ
الْأَصْنَامَ ﴿٦﴾﴾^(٦) ، وقد أتى الله إبراهيم رشده من قبل ، وأراه ملكوت السموات والأرض
ليكون موقناً ، فكيف لا يعصمه عن مثل هذا التحير؟!^(٧).

(١) سورة الأنعام الآيتان (٨٠-٨١).

(٢) التفسير الكبير (٤٠/٥).

(٣) سورة آل عمران آية (٦٧).

(٤) أضواء البيان (٢٣٧/٢).

(٥) زاد المسير (٧٤/٣).

(٦) سورة إبراهيم من الآية (٣٥).

(٧) زاد المسير (٧٤/٣) ، وانظر: المحرر الوجيز (٤٠٢/٣) ، ومعالم التنزيل (١٦١/٣) ، والتفسير الكبير
(٣٩/٥) ، والجامع لأحكام القرآن (٢٤١٦/٣) ، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص ٤٣).

قال ابن كثير - رحمه الله -: " وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظراً في هذا المقام ، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلَىٰ إِذِّ قَالِ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقِسَابُ لُئَلَّا أَنْتَ مَا عَدِثُونَ ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي مَدَنِي رَقِيبٌ مَّا مَرَّطٌ مُّسْتَقِيمٌ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: " كل مولود يولد على الفطرة " (٣) فإذا كان هذا في حق سائر الخليفة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله ﴿ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ناظراً في هذا المقام ١٩ ، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب " (٤) .

٢ - قول الله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخَلِّفُونَ (٣) .
اختلف المفسرون في المراد بالنبي ، فقال بعضهم: إن المراد به القرآن الكريم ، وروي هذا القول عن ابن عباس ، وهو قول مجاهد ، ونسبه بعض المفسرين إلى أكثر العلماء (١) . وقال آخرون: إن المراد به البعث والجزاء . وقال به قتادة ، وابن زيد ، ورجحه الرازي . وابن كثير ، والكلوسي (ت ١٢٧٠) ، ونسبه للجمهور ، وأكد أنه الأنسب بالآيات (٧) . وقد استدلل أصحاب القول الأول بالسياق ، وهو قوله تعالى: ﴿ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخَلِّفُونَ ﴾ . فالكفار اختلفوا في القرآن ، فجعله بعضهم سحراً ، وبعضهم شعراً ، وبعضهم كهانة .

(١) سورة الأنبياء الآيتان (٥١-٥٢) .

(٢) سورة الأنعام آية (١٦١) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٠٤/٢) ، وصحيح مسلم كتاب القدر ،

(٢٠٤٧/٤) برقم (٢٦٥٨) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢٨٦/٣) باختصار . وقد أسهب الرازي في ذكر الوجوه في الرد على هذا القول . وذكر أن أكثر المحققين انفقوا على فساد .

(٥) سورة النبأ الآيات (١-٣) .

(٦) انظر: معالم التنزيل (٣١١/٨) ، والجامع لأحكام القرآن (٦٩٦١/٨) .

(٧) انظر: جامع البيان (٦/٢٤) ، والتفسير الكبير (٦/١١) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٢٦/٨) .

وروح المعاني (٣/٢٠) .

وقال بعضهم: هو أساطير الأولين، قالوا: وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره^(١).

والراجع - والله أعلم - تفسير النبا العظيم بالبعث، لأن السياق فيه أقوى، فالسورة من أولها إلى آخرها في تقريره، وبيان ذلك من وجوه:

أ - ذكر الله تعالى دلائل قدرته على البعث بعد الموت في قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝١ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٢ وَخَلَقَنَّا أَزْوَاجًا ۝٣ وَجَعَلْنَا تَوْمَكُمُ سَبَا ۝٤ وَجَعَلْنَا أَيْلَ يَأْسًا ۝٥﴾ الآيات^(٢). فجاءت الآيات بهذه المقدمة، لبيان قدرة الله تعالى على البعث^(٣)، وهذه الدلائل ذكرها في مواطن عديدة من كتابه للدلالة على البعث، مثل قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝١ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٢ نَبِيْرَةً وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عِبْدٍ مُّبِينٍ ۝٣ وَزَرَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْدَرًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٤ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نُضَيْدٌ ۝٥ وَزَقَّا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝٦﴾^(٤). فقد ذكر الله خلق السماء والأرض والجبال وأنبات النبات ... ثم عقب بقوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝٦﴾.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٢ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝٣﴾^(٥).

ب - ومما يؤكد ذلك أن الله تعالى لما ذكر هذه الدلائل عقب بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ۝١﴾^(٦)، قال القرطبي - رحمه الله - : (ت ٦٧١): "والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث، قال بعض علمائنا: والذي يدل عليه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ۝١﴾، يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث"^(٧).

(١) فتح القدير (٥/ ٣٦٣).

(٢) سورة النبا (٦- ١٦).

(٣) التفسير الكبير (١١/ ٦).

(٤) سورة ق الآيات (٦- ١١).

(٥) سورة الزخرف الآيات (٩- ١١).

(٦) سورة النبا آية (١٧).

(٧) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٦٩٦١).

ج - ذكر الله تعالى الأحوال التي تقع في يوم القيامة ، مثل : فتح السماء وتسيير الجبال ، في قوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (١٠).

د - ذكر الله تعالى مصير أهل النار ومصير أهل الجنة من قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَنَاجِبًا﴾ إلى نهاية السورة (١٢).

وأما قول الله تعالى عن النبأ: ﴿الَّذِي هُوَ بِهِ مُخَلِّفُونَ﴾ ، فيمكن أن يصدق على يوم البعث ، ويكون اختلافهم في البعث من جهة اختلاف طوائف الكفار فيه ، فأثبت النصرى المعاد الروحاني ، وأثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسماني ، وكان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد ، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٣) ، وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه بل شاكة فيه ، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ (٤) ، وما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَى﴾ (٥).

قال الشوكاني - رحمه الله -: بعد أن ذكر هذا: "فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة" (٦).

وهذا على احتمال أن الضمير في ﴿يَسَاءَ لَوْ﴾ للكفار ، ويحتمل أن يراد به جميع العالم ، فيكون الاختلاف حينئذ بتصديق المؤمنين ، وتكذيب الكافرين ، ونزغات الملحدين (٧).

(١) (١٨-٢٠).

(٢) انظر في تقرير دلالة السياق ما ذكره عطية سالم : في تفسيره لهذه السورة في تنمة أضواء البيان (٦/٩).

(٣) سورة المؤمنون آية (٣٧).

(٤) سورة الجاثية من الآية (٣٢).

(٥) سورة فصلت من الآية (٥٠).

(٦) فتح القدير (٣٦٣/٥) ، وانظر : التفسير الكبير (٦/١١) ، والجامع لأحكام القرآن (٦٩٦١/٨).

(٧) المحرر الوجيز (٥١٢/٨) ، وانظر : النكت والعيون (١٨٣/٦) ، ومعالم التنزيل (٣١٧/٨) ، وزاد المسير (٥/٩) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٢٦/٨) ، وروح المعاني (٤/٣٠).

وجاء ذلك صراحة عن قتادة : ، فقد نقل عنه الطبري أنه قال: عن النبأ ﴿الَّذِي مَرَّ بِهِ مَخْلُتُونَ﴾ البعث بعد الموت ، فصار الناس فيه فريقين: مصدق ومكذب ، فأما الموت فقد أقرّوا به لمعاينتهم إياه ، واختلفوا في البعث بعد الموت^(١).

وقد ذكر ابن كثير -رحمه الله-: الاختلاف في النبأ ، ورجح أنه البعث بعد الموت ، واستدل لترجيحه بقوله: ﴿الَّذِي مَرَّ بِهِ مَخْلُتُونَ﴾ ، وقال: "يعني: الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر"^(٢).

٣- قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾^(٣).

اختلف المفسرون في المراد بالعذاب العقيم على قولين:

القول الأول: أن المراد به يوم بدر ، وقال به: أبي بن كعب ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ونسبه البغوي (ت ٥١٦) للأكثرين ، ورجحه الطبري -رحمه الله- ، ومكي بن أبي طالب ، وابن عطية^(٤).

القول الثاني: أن المراد باليوم العقيم يوم القيامة ، وقال به: مجاهد وعكرمة في إحدى الروايتين عنهما ، والضحاك ، والحسن البصري ، ورجحه الرازي ، وابن كثير ، وابن جزري ، والآلوسي ، والشنقيطي^(٥).

وقد استدلل أصحاب القول الأول بالسياق ، وفي تقريره يقول الطبري: "وهذا القول الثاني [أي يوم بدر] أولى بتأويل الآية ، لأنه لا وجه لأن يقال: لا يزالون في مرية منه حتى تأتاهم الساعة بغتة ، أو تأتاهم الساعة ؛ وذلك أن الساعة هي يوم القيامة ، فإن كان

(١) جامع البيان (٧/٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٢٦/٨).

(٣) سورة الحج آية (٥٥).

(٤) انظر: جامع البيان: (٦١٦/١٦)، والهداية (٤٩٢١/٧)، والمحرر الوجيز: (٢٦٦/٦)، ومعالم التنزيل (٣٩٦/٥).

(٥) انظر: جامع البيان (٦١٦/١٦)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٤٤٣/٥)، والتفسير الكبير (٢٤٢/٨)، والتسهيل (٦٢/٢)، وروح المعاني (١٧٥/١٧)، وأضواء البيان: (٨٠٣/٥).

اليوم العقيم أيضاً هو يوم القيامة ، فإنما معناه ما قلنا من تكرير ذكر الساعة مرتين باختلاف الألفاظ ، وذلك ما لا معنى له ^(١) .

ويقول ابن عطية: " قالت فرقة: أراد يوم القيامة ، واليوم العقيم يوم بدر ، وقالت فرقة: الساعة موتهم أو قتلهم في الدنيا ، كيوم بدر ونحوه ، واليوم العقيم يوم القيامة . وهذان القولان جيدان ، لأنهما أحرزا التقسيم بأو ، ومن جعل الساعة واليوم العقيم يوم القيامة ، فقد أفسد رتبة أو " ^(٢) .

غير أن استدلال أصحاب القول الثاني بالسياق أقوى وأكثر دلالات من أصحاب القول الأول ، فقد استدلوا بالسياق واللاحق ، وبيان ذلك بالآتي:

أ - أن الله تعالى ذكر في أول الآية أن الكفار لا يزالون في مرية من القرآن حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب عقيم ، والكفار لم يزالوا في مرية حتى بعد وقعة بدر ، وهذا ما تنفيه الآية ، قال الرازي - رحمه الله - : " لا يجوز أن يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، ويكون المراد يوم بدر ؛ لأن من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر " ^(٣) .

ب - أن الله تعالى قال: ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ ، ثم عقب بقوله: ﴿ أَلَمْ نَكُنْ يَوْمَئِذٍ لِّلَّذِينَ يَكْفُرُونَ آيَةً ﴾ ^(٤) ، والمراد باليوم المذكور في الآية يوم القيامة قطعاً ، وعليه فاليوم العقيم هو يوم القيامة ، قال الشنقيطي - رحمه الله - : " القرينة القرآنية هنا دلت على أن المراد باليوم العقيم: يوم القيامة ، لا يوم بدر ، وذلك أنه تعالى أتبع ذكر اليوم العقيم بقوله: ﴿ أَلَمْ نَكُنْ يَوْمَئِذٍ لِّلَّذِينَ يَكْفُرُونَ آيَةً ﴾ ، وذلك يوم القيامة ، وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يوم إذ تأتيهم الساعة ، أو يأتيهم عذاب عقيم ، وكل ذلك يوم القيامة ، فظهر أن اليوم العقيم: يوم القيامة " ^(٥) .

(١) جامع البيان: (٦١٧/١٦) ، وينظر: المراجع السابقة.

(٢) المحرر الوجيز: (٢٦٦/٦) .

(٣) التفسير الكبير (٨/٢٤٢) .

(٤) سورة الحج من الآية (٥٦) .

(٥) أضواء البيان: (٨٠٣/٥) ، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٤٤٣/٥) ، والتسهيل: (٦٢/٢) .

وقال الرازي - رحمه الله -: " أما قوله: ﴿الْمَلَأْتُ يَوْمَهُمُ اللَّهُ﴾ فمن أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو ذلك اليوم ، وأراد بذلك أنه لا مالك في ذلك اليوم سواء ، فهو بخلاف أيام الدنيا التي ملك الأمور غيره ^(١) .

وفي تفسير أبي السعود ^(٢) : " وأما ما قيل من أن المراد يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر... فمما لا يساعده سياق النظم الكريم أصلاً ، كيف لا ؟! ، وإن تخصيص الملك والتصرف الكلي فيه بالله عز وجل ، ثم بيان ما يقع فيه من حكمه تعالى بين الفريقين بالثواب والعذاب الأخرويين يقضي بأن المراد به يوم القيامة قضاءً بيناً لا ريب فيه .

ج - ما قيل من لزوم التكرار إن فسر اليوم العقيم بيوم القيامة ، يجاب عنه بأن الأمر ليس كذلك ، فإن الله تعالى ذكر الساعة ، وذكر أشد ما يقع فيها ، وهو العذاب العقيم ، وأشدّه عذاب جهنم ، ولو كانت الآية: حتى تأتيهم الساعة أو يوم عقيم ، كان لهذا الاعتراض وجه ، ولكن الله ذكر العذاب بخصوصه اهتماماً بشأنه وتخويفاً وترهيباً للكافرين ، ولأنه أشد ما يقع على الكفار يوم القيامة ، قال الألوسي - رحمه الله -: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ، أي: منفرد عن سائر الأيام لا مثل له في شدته ، أو لا يوم بعده ، كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، فما لا يوم بعده يكون عقيماً ، والمراد به الساعة بمعنى يوم القيامة أيضاً ، كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها ، فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل والتخويف ^(٣) ، والله أعلم .

الوجه الرابع من أوجه الترجيح:

أن تحتف بأحد السياقين مرجحات أخرى تقوي دلالته ، مثل: الاستدلال بالقرآن ، أو بالسنة ، أو باللغة العربية على ترجيح دلالة أحد السياقين على دلالة الآخر . ومن المرجحات التي يلجأ إليها عند التعارض: تقديم ما عضده دليل آخر على ما لم يعضده دليل آخر ، لاجتماع دليلين في مقابلة دليل واحد ^(٤) .

(١) التفسير الكبير (٢٤٢/٨).

(٢) (٣٧/٤).

(٣) روح المعاني (١٧٥/١٧) ، وانظر التفسير الكبير (٢٤٢/٨).

(٤) انظر: شرح مختصر الروضة للطوفي (٧٠٧/٣) ، وإرشاد الفحول (ص ٢٧٩).

ومن أمثلة هذا الوجه:

قول الله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝﴾^(١).

اختلف المفسرون في معنى النجم، فذهب بعضهم إلى أن النجم هو الكوكب المعروف في السماء، وهذا قول مجاهد، والحسن، وقتادة، ورجحه ابن كثير، والشنقيطي.

وقال آخرون: هو النبات الذي لا ساق له، المنبسط على وجه الأرض، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، والسدي، وسفيان الثوري (ت ١٦١)، واختاره ابن جرير، وأبو حيان، والأكوسي، واستدلوا بالسياق^(٢).

واتفق المفسرون على أن معنى الشجر هو ما قام على ساق^(٣).

وقد وجه ابن عطية دلالة السياق على المعنيين، فقال عن كون النجم نباتاً: "وهو مناسب للشجر نسبة بينة"، وقال عن كونه كوكباً: "والنسبة التي لها من السماء هي التي للشجر من الأرض، لأنها في ظاهرهما"^(٤).

فسياق الآيات دل على المعنيين: أما الكوكب، فلأن الله تعالى ذكر عدة أشياء تناسب الكوكب، فذكر الشمس والقمر وهي من الكواكب، وذكر السماء التي هي وعاء للنجم ومحيطه به، أما على معنى النبات فإن الله تعالى ذكر عدة أشياء تناسبه، فذكر الشجر والحب ذو العصف، وهو مما لا ساق له، وذكر الفاكهة والنخل ذات الأكمام: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ وَلَهُ تُدْرِكُهُ الْوَيْطَانُ ۝﴾^(٥).

(١) سورة الرحمن الآيات (٥-٧).

(٢) انظر في القولين: جامع البيان (١٧٤/٢٢)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٦٤/٧)، والبحر المحيط

(١٨٧/٨)، وروح المعاني (١٠٠/٢٧)، وأضواء البيان (٧٨٧/٧).

(٣) حكى الاتفاق ابن جرير الطبري في جامع البيان (١٧٣/٢٢)، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٤٦٤/٧).

(٤) المحرر الوجيز (١٦٠/٨).

(٥) سورة الرحمن الآيتان (١١-١٢).

ويوجه أبو حيان قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٌ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ فيقول: "والتناسب الذي بين هاتين الجملتين ظاهر، لأن الشمس والقمر علويان، والنجم والشجر سفليان" (١).

إلا أن الذي يترجح عندي - والله أعلم - أن تفسير النجم بالكوكب أقوى لما يلي:
أ - أن النجم ورد في القرآن في مواطن عدة، والمراد به الكوكب (٢)، وحمل معاني كلام الله على الغالب من أسلوب القرآن ومعهود استعماله أولى من الخروج به عن ذلك (٣). قال ابن القيم: "النجوم حيث وقعت في القرآن، فالمراد منها الكواكب كقوله تعالى: ﴿وَذَبَّرَ النَّجْمُ﴾ (٤)، وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ (٥).

ب - أن الله تعالى ذكر في سورة الحج سجود النجم وهو بالاتفاق: الكوكب، وقد استدلل الشنقيطي: بآية الحج، وقال: "الذي يظهر لي صوابه أن المراد بالنجم هو نجوم السماء، والدليل على ذلك أن الله - جل وعلا - في سورة الحج صرح بسجود نجوم السماء والشجر، ولم يذكر في آية من كتابه سجود ما ليس له ساق من النبات بخصوصه، ونعني بآية الحج قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ﴾ الآية (٦)، فدللت هذه الآية أن الساجد مع الشجر في

(١) البحر المحيط (١٨٨/٨)، وفي الكشاف (٦/٦): "إن الشمس والقمر سماويان، والنجم والشجر أرضيان، فبين القبلتين تناسب من حيث التقابل".

(٢) ورد ذكر النجم في القرآن بالإفراد والجمع ثلاث عشرة مرة، وفي بعضها اختلاف هل يراد به الكوكب المعروف أو غيره. مثل قول الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، وقوله ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْزِعِ النَّجْمِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقوله: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ [الصافات: ٨٨]، والراجح في هذه المواطن أنه الكوكب.

(٣) بدائع الفوائد (٣٢/٣)، وقواعد الترجيح عند المفسرين (١٧٢/١)، وذكر الشنقيطي: في أضواء البيان (٢٣/١) أن من أنواع البيان في القرآن الكريم الاستدلال على أحد المعاني الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن، وغلبته فيه دليل على عدم خروجه من معنى الآية.

(٤) سورة الطور من الآية (٤٩).

(٥) سورة الحج من الآية (١٨)، وانظر التبيان في أيمان القرآن (٣٢٢).

(٦) سورة الحج آية (١٨).

آية الرحمن هو النجوم السماوية ، المذكورة مع الشمس والقمر في سورة الحج ، وخير ما يفسر به القرآن القرآن ، وعلى هذا الذي اخترناه ، فالمراد بالنجم: النجوم^(١) .
ج - أن ذكر الشجر - وهو نبات - مع النجم يقابل بذكر الشمس والقمر قبله - وهما من الكواكب - وذكر السماء بعده وهي وعاءه ، وإذا أضفنا إليه ورود النجم في القرآن الكريم كله بمعنى الكوكب ترجح هذا المعنى على المعنى الآخر ، والله تعالى أعلم.

والمعنى الآخر له وجه قوي من النظر ، وقد ذهب ابن عاشور - رحمه الله - : إلى احتمال الآية للمعنيين ، فالنجم على معنى الكوكب يسجد بدلالة آية الحج ، والنجم على معنى النبات يسجد ، وسجوده داخل في عموم قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمُ الْغُدُورُ وَالْأَصْحَالُ﴾^(٢) ، والله تعالى أعلم.

وقد يتوقف بعض المفسرين عن الجزم بصحة أحد الأقوال في معنى الآية نظراً لتكافؤ الأدلة لديه ، وتنازع السياق في الدلالة على المعنى ، ومن أمثلته:

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَأَقْبَرُوا اللَّهَ لَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿١٨﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَتَوَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِمِائَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٩﴾ .

اختلف المفسرون في وعد النبي ﷺ المؤمنين بإمداد الله تعالى لهم بالملائكة ، المذكور في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

ف قيل: إن الوعد المذكور في الآية وقع يوم بدر ، وهذا قول ابن عباس ، والحسن ، والشعبي ، وقتادة ، والربيع بن أنس (ت ١٤٠) . ونسبه بعض المفسرين للجهم^(٤) ، ومال

(١) أضواء البيان (٧٨٧/٧).

(٢) سورة الرعد آية (١٥) ، وانظر التحرير والتنوير (٢٣٦/٢٧).

(٣) سورة آل عمران الآيات (١٢٣ - ١٢٥).

(٤) المحرر الوجيز (٣٤٣/٢) ، والبحر المحيط (٥٢/٣).

إليه ابن جرير الطبري ، ورجحه ابن الجوزي ، وأبو حيان -رحمه الله- ، والقرطبي ، وابن كثير ، والشنقيطي^(١).

والقول الثاني: أن الوعد المذكور وقع يوم أحد ، وهو قول مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والزهري (ت ١٢٤) ، ومال إليه ابن تيمية ، وابن القيم^(٢).

وقد استدل أصحاب كل قول بسياق الآيات:

ففي دلالة السياق على القول الأول يقول أبو حيان: "ظاهر هذه الآية اتصالها بما قبلها، وأنها من قصة بدر ، وهو قول الجمهور ، فيكون "إذ" معمولاً لنصركم"^(٣).

ويقول القاسمي -رحمه الله-: "سياق ما قبله يدل عليه ، وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾^(٤) ف "إذ" ظرف لنصركم ، أي: نصركم وقت قولك للمؤمنين ، وقد أظهروا العجز واستغاثوا ربهم....ومما يؤيد هذا الوجه أن سياق بدر في الأنفال من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَبْعِدُكُمُ اللَّهُ إِلَى الْأَمْنَيْنِ﴾^(٥) ، شبيهة بهذا السياق هنا ، كما يذوقه من تدبره"^(٦). ويقول ابن عاشور -رحمه الله-: "وبهذا الوجه فسر الجمهور ، وهو الذي يقتضيه السياق"^(٧).

ومن دلالة السياق على القول الثاني أن آيات السورة في سياق قصة أحد ، وإنما ذكرت غزوة بدر اعتراضاً في أثناءها^(٨).

(١) انظر: جامع البيان (٢٨/٦) ، وتفسير القرآن لابن أبي حاتم (٧٥٢/٣) ، وزاد المسير (٤٥١/١) ، والبحر المحيط (٥٢/٣) ، والجامع لأحكام القرآن (١٤٣٤-١٤٣٥) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٩٢/٢-٩٤) ، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص ٥٣).

(٢) انظر: جامع البيان (٢٧/٦) ، وتفسير القرآن لابن أبي حاتم (٧٥٢/٣) ، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٧/١٥) ، وزاد المعاد (١٧٧/٣-١٧٨) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٩٤/٢).

(٣) البحر المحيط: (٥٢/٣).

(٤) سورة آل عمران من الآية (١٢٣).

(٥) سورة الأنفال الآيات (٧-١٠).

(٦) محاسن التأويل: (٩٦٤/٤) وقال ابن كثير في تفسيره (٩٤/٢): "وهذا السياق [سياق سورة الأنفال] شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران ، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر ، كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر ، والله أعلم".

(٧) التحرير والتنوير (٧٣/٤).

(٨) زاد المعاد (١٧٨/٣).

وقد ذكر الرازي القولين ، وأفاض في ذكر حجج كل قول ، ومنها استدلال كل فريق بالسياق ، ثم عقب بقوله: " فهذا حاصل ما قيل في تقرير هذين القولين ، والله أعلم بمراده " (١) .

وبالنظر في دلالات السياق في السورة يظهر أن بينها تكافؤاً في القوة ، فقوة اتصال قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ ﴾ يقابله في القوة أن القصة في سورة آل عمران لغزوة أحد ، وذكرت فيها مستوفاة مطولة ، وغزوة بدر إنما ذكرت اعتراضاً للتذكير بنعمة النصر .

وقد ذكر القائلون بأن المراد غزوة أحد دلالات من السياق قريبة من ذكر غزوة بدر تؤيد مذهبهم ، مثل: قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَتَوَقَّعُوا وَيَأْتِئُوكُم مِّن قَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ ، قالوا: والمراد: ويأتوكم أعداؤكم من فورهم ، ويوم أحد هو اليوم الذي كان يأتيهم الأعداء ، فأما يوم بدر فالأعداء ما أتوهم ، بل هم ذهبوا إلى الأعداء (٢) ، وهذه الدلالات يمكن أن تحمل عليها غزوة بدر (٣) .

ومن أقوى ما احتج به أصحاب القول الأول ما ثبت أن الملائكة نزلت في غزوة بدر وقاتلت ، بينما لم يحصل المدد في غزوة أحد ، واحتاج العلماء هنا إلى الجواب عن ما جاء في سورة الأنفال في قول الله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (٤) ، وما ذكر في سورة آل عمران من أنهم أمدوا بأكثر من ذلك .

والجواب أن التنصيص على الألف في الأنفال لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها ، فالله وعد المؤمنين بألف ثم صارت ثلاثة آلاف ، ثم صارت خمسة آلاف ، ووجه الجمع بين الآيتين أن الله وعدهم بألف من الملائكة ، وأطمعهم بالزيادة بقوله: ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ أي: مردفين بعدد آخر (٥) ، والله تعالى أعلم .

(١) التفسير الكبير (٣/٣٥١) .

(٢) انظر: التفسير الكبير (٣/٣٤٩) ، وزاد المعاد (٣/١٧٨) ، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/٣٧) .

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٤/٧٥) .

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٩٤) ، ودفع إيهام الاضطراب (ص ٥٣) ، والتحرير والتنوير (٤/٧٣) .

الخاتمة:

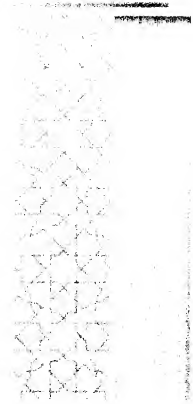
تبين من خلال البحث أن الله تعالى نصب دلائل عديدة لفهم الكتاب العزيز، وهذه الدلائل تتفاوت في قوتها، وقد تتعارض مع دلائل أخرى، وهذا التعارض إنما هو بحسب نظر المجتهد وفهم المفسر، وأما في نفس الأمر فلا تعارض بين الأدلة والنصوص الشرعية.

وتبين من البحث أهمية السياق في فهم معاني القرآني، لكن قد يعتريه ما يضعف دلالاته بمعارضته بما هو أقوى منه، أو خفاء دلالاته على المعنى، وقد سلك العلماء مسالك عديدة في دفع التعارض، وذكر في البحث ما يتصل بالتعارض بين دلالات السياق، ومن أهمها:

الجمع بين الأقوال التي دل عليها السياق، وبذلك ينتفي التعارض، فإعمال الأقوال أولى من إهمال بعضها، والجمع بين الأقوال يزيد في توضيح معنى الآية ومدلولها، ويوحي بسعة أفق المفسر في فهم القرآن، وإن لم يمكن الجمع فالترجيح بوجه من أوجه الترجيح، وهي كثيرة ومتفاوتة، والمطلوب من المفسر العناية بأقواها وأولها، والاعتماد حين الترجيح على الأدلة والقرائن، ومن أوجه الترجيح المتصلة بقضية البحث:

- أن يكون أحد السياقين أقرب من السياق الآخر.
- أن تكون دلالة أحد السياقين ظاهرة، ودلالة الآخر خفية.
- أن تدل مواضع عديدة في السياق على أحد المعنيين بخلاف الآخر.
- أن تعضد دلالة أحد السياقين أدلة أخرى من الكتاب والسنة وغيرهما بخلاف الآخر.

ومن المهم أن يكون حاضراً لدى المفسر حين الترجيح بين المعاني أن الآيات قد تحتل وجوهاً من المعاني، يكون بعضها راجحاً، وغيرها أرجح، وبعضها قوياً، وغيرها أقوى، وعليه ينبغي ألا يسارع في تضعيف وجه من وجوه معاني الآيات إلا بدليل. وبعد فإن التعارض بين دلالات السياق القرآني جزئية واحدة من مباحث كثيرة متعلقة بالسياق، سواء تعلقت بالتعارض أو غيره، وهذا يؤكد أن هناك مسائل وجزئيات كثيرة تتعلق بالسياق بحاجة إلى الدراسة والتحليل والمقارنة، والله أعلم. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



المصادر والمراجع

- ١- آداب البحث والمناظرة ، لمحمد الأمين الشنقيطي ، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة ، ومكتبة العلم بجدة.
- ٢- الإبهاج في شرح المنهاج ، لعلي بن عبد الكافي السبكي وابنه عبد الوهاب ، تحقيق د. شعبان إسماعيل ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ط الأولى عام ١٤٠١.
- ٣- الإتيقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي ، مطبعة الحلبي بمصر ، ط الرابعة ، عام ١٣٩٨.
- ٤- الإحكام في أصول الأحكام ، لسيف الدين علي بن أبي علي الأمدي ، تعليق عبد الرزاق عفيفي ، ط الأولى عام ١٣٨٧.
- ٥- أحكام القرآن ، لأبي بكر محمد بن عبد الله المالكي (ابن العربي) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، ط الثانية عام ١٣٨٧.
- ٦- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول ، لأبي عبد الله محمد بن علي الشوكاني ، دار المعرفة ، بيروت عام ١٣٩٩ ، مصورة عن طبعة الحلبي عام ١٣٥٦.
- ٧- أساس البلاغة ، لأبي القاسم الزمخشري ، دار صادر ببيروت ، عام ١٣٩٩.
- ٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، لمحمد الأمين الشنقيطي ، أشرف على تحقيقه بكر أبو زيد ، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة.
- ٩- البحر المحيط ، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي ، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض ، دار الكتب العلمية ببيروت ، ط الأولى عام ١٤١٣.
- ١٠- البحر المحيط في أصول الفقه ، لمحمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق عبد الستار أبو غدة وعبد القادر العاني ، نشر وزارة الأوقاف بالكويت ، ط الثانية عام ١٤١٣.
- ١١- بدائع الفوائد ، لابن قيم الجوزية ، مكتبة القاهرة ، مصر ، ط الثانية عام ١٣٩٢.
- ١٢- البرهان في علوم القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق د. يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط الثانية عام ١٤١٥.
- ١٣- التبيان في أيمان القرآن ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق عبد الله البطاطي ، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة ، ودار عالم الفوائد.
- ١٤- تنمة أضواء البيان ، عطية محمد سالم ، مطبعة المدني ، ط الأولى عام ١٤٠٠.
- ١٥- التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر بن عاشور ، دار التونسية بتونس ، عام ١٩٨٤م.

- ١٦- التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن أحمد بن جزى الكلبى، تصحيح محمد هاشم، دار الكتب العلمية ببيروت، ط الأولى عام ١٤١٥.
- ١٧- التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب - بيروت، ط الأولى عام ١٤٠٧.
- ١٨- تفسير جزء عم، د. مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، ط الثامنة، ١٤٣٠.
- ١٩- تفسير ابن أبي حاتم، لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي، تحقيق أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز بمكة، ط الثالثة، عام ١٤٢٤.
- ٢٠- تفسير أبي السعود، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، تحقيق عبد القادر عطا، مكتبة الرياض الحديثة، ومطبعة السعادة.
- ٢١- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق عبد العزيز غنيم وآخرين، دار الشعب بالقاهرة.
- ٢٢- التفسير الكبير، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط الثالثة عام ١٤٢٠.
- ٢٣- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف.
- ٢٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار هجر بالقاهرة، ط الأولى عام ١٤٢٢.
- ٢٥- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار الشعب بالقاهرة.
- ٢٦- حاشية العطار على جمع الجوامع، لحسن العطار، تصوير دار الكتب العلمية ببيروت.
- ٢٧- الخطأ في تفسير القرآن بالقرآن، د. محسن المطيري، رسالة دكتوراه في كلية التربية بجامعة الملك سعود، قسم الثقافة الإسلامية، عام ١٤٣١.
- ٢٨- الدر المصون، للسمين الحلبي، تحقيق د. أحمد الخراط، دار القلم بدمشق.
- ٢٩- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، لمحمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، ط الأولى عام ١٤١٧.
- ٣٠- دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير، د. عبد الحكيم القاسم، رسالة ماجستير بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود، عام ١٤٢١.

- ٣١- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، لمحمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي ببيروت، مصورة عن الطبعة المنيرة.
- ٣٢- روضة الناظر وجنة المناظر، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق د. عبد الكريم النملة، مكتبة الرشد بالرياض، ط الثانية عام ١٤١٤.
- ٣٣- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المكتب الإسلامي ببيروت، ط الأولى عام ١٣٨٤.
- ٣٤- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط السابعة والعشرون، عام ١٤١٥.
- ٣٥- سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق عزت عبيد الدعاس، نشر المكتبة الإسلامية بتركيا.
- ٣٦- السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي، عبد الفتاح محمود، رسالة ماجستير في الجامعة الأردنية، عام ١٤٢٦.
- ٣٧- السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني، د. زيد العيص، بحث في مجلة العلوم التربوية والدراسات الإسلامية بجامعة الملك سعود، مجلد ١٥، العدد ٢، عام ١٤٢٣.
- ٣٨- شرح الكوكب المنير، لابن النجار محمد بن أحمد الفتوحي، تحقيق نزيه حماد ومحمد الزحيلي، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة، عام ١٤٠٠.
- ٣٩- شرح مختصر الروضة، لأبي الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق د. عبد الله التركي، نشر وزارة الشؤون الإسلامية بالسعودية، الطبعة الثانية عام ١٤١٩.
- ٤٠- صحيح البخاري، لأبي عبد الله البخاري، المكتبة الإسلامية بتركيا، عام ١٩٧٩م.
- ٤١- صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية بتركيا.
- ٤٢- ضوابط المعرفة، عبد الرحمن الميداني، دار القلم بدمشق، ط الرابعة ١٤١٤.
- ٤٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لأبي عبد الله محمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط الثانية عام ١٣٨٣.
- ٤٤- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط الثانية ١٤٠٧.

- ٤٥- قواعد الترجيح عند المفسرين ، حسين بن علي الحربي ، دار القاسم بالرياض . ط الأولى ، عام ١٤١٧ .
- ٤٦- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل ، لأبي القاسم الزمخشري ، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض ، مكتبة العبيكان بالرياض . ط الأولى عام ١٤١٨ .
- ٤٧- الكليات لأبي البقاء الكفوي ، تحقيق عدنان درويش ، مؤسسة الرسالة ببيروت . ط الثانية عام ١٤١٩ .
- ٤٨- لسان العرب ، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور ، تحقيق عبد الله علي الكبير وزميله ، دار المعارف بمصر .
- ٤٩- مجموع الفتاوى ، لأبي العباس أحمد بن تيمية ، جمع عبد الرحمن بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة ، عام ١٤١٦ .
- ٥٠- محاسن التأويل ، جمال الدين القاسمي ، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة عيسى الحلبي بمصر . ط الأولى ١٣٧٦ .
- ٥١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، تحقيق الرحالة الفاروق وآخرين ، نشر وزارة الأوقاف بقطر ، ط الثانية عام ١٤٢٨ .
- ٥٢- مذكرة في أصول الفقه ، لمحمد الأمين الشنقيطي ، المكتبة السلفية بالمدينة .
- ٥٣- المستدرک على الصحيحين ، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار الكتاب العربي ببيروت ، مصورة عن الطبعة الهندية عام ١٣٣٥ .
- ٥٤- المستصفى من علم الأصول ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، دار إحياء التراث العربي ببيروت ، مصورة عن طبعة بولاق بمصر عام ١٣٢٥ .
- ٥٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، نشر دار سحنون بتونس ، الطبعة الثانية ، مصورة عن الطبعة الميمنية بمصر ، عام ١٣١٣ .
- ٥٦- معالم التنزيل ، لمحيي السنة الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق محمد عبد الله النمر وزميله ، نشر دار طيبة بالرياض عام ١٤٠٩ .
- ٥٧- المعجم الوسيط ، د. إبراهيم أنيس ، المكتبة الإسلامية بتركيا ، ط الثانية .
- ٥٨- مفردات ألفاظ القرآن ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار القلم بدمشق ، والدار الشامية ببيروت ، ط الثانية عام ١٤١٨ .

- ٥٩- الموافقات ، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، تحقيق أبي عبدة مشهور آل سلمان ، دار ابن القيم بالدمام ، ط الأولى عام ١٤٢٤.
- ٦٠- النبوات ، لأبي العباس أحمد بن تيمية ، تحقيق عبد العزيز الطويان ، أضواء السلف بالرياض ، ط الأولى عام ١٤٢٠.
- ٦١- النشر في القراءات العشر ، لأبي الخير محمد بن محمد بن الجزري ، تحقيق علي الضباع ، دار الكتب العلمية ببيروت.
- ٦٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، لبرهان الدين البقاعي ، أشرف على طباعته محمد خان ، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند ، ط الأولى عام ١٣٩١.
- ٦٣- النكت والعيون ، لأبي الحسين علي بن محمد الماوردي ، مراجعة عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية ببيروت ، ط الثانية عام ١٤٢٨.
- ٦٤- الهداية إلى بلوغ النهاية ، لمكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق بإشراف الشاهد البوشيخي ، نشر جامعة الشارقة بالإمارات ، ط الأولى عام ١٤٢٩.

* * *

